ذَاكِرَةُ المَوْت

ذَاكِرَةُ الْمَوْت

مُحَمّد إِبراهِيم قَشْقُوْش

قِصص

تَصْميمُ الغُلاف :محمد عيد

تَدْقِيقٌ لُغوِيّ: محمد السمالوسي

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٠٢٧٧

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٣١٦-٣

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob١@yahoo.com

دار اكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، ٢٠١٤م

ذَاكِرَةُ الْمَوْت

مُحَمّد إِبراهِيم قَشْقُوْش

قِصَص



دار اكتب للنشر والتوزيع

الإهداء

إلَى أُمِي وأبِي وأخْتِي .

إلى زوجتِي الحبيبة الجميلة .

إلى ابنتِي "ملك" الّتي لا تُعطِيني فرصةً لأكتبَ شيئاً .

إلى كُلِّ من كانوا يتحرّكون حولِي وفجأة اختفوا ولم تَبق إلّا أطيافُهم تَجُوبُ الأماكن حيث كُنتُ أراهم .

إلى طارق صقر الأخ والصديق المفقود .

أهدي لكم هذا الكتاب وأشكركم على وجودكم في حياتي .

المؤلِّف

القِسْمُ الأَوّلُ (هو وهِيَ)

تِلْك اللحَظَاتُ

قابلها أمام مُدرج (د) في الكليّة ، تَوقَفتْ فَجأة أمامه ، سألتَهُ عن أحوالِه وأحوال زوجتِه وأولادِه ، تَحدّثَتْ بالفعل كأستاذة دكتورة ، نَبراتُها قويّة حادة كسكين يَشقُ الكلمات شقًا دون اِعوجاجٍ وسط سيل الكلمات المنبعث من جموع الطلاب حولهما المتجمّعِين أمام المدرجات ، عَهِدَها دائمًا لبقة ، أمّا هو فكان مُوظفًا إداريًا تابعًا لمكتب حرس أمن الكلية ، تفحّصها خِلْسة أثناء حديثها ، ازدادَتْ جَمالًا عن طفولتِها ، ذلك الشّعرُ الأسود المتطاير . . . كان معقوصًا لأعلى ، عَقصَتُه لتبدو أكثرَ وقارًا ، يعلم أنه يتطايرُ كخيوطِ الحرير ، تلك العينان الواسعتان لوجه مُستدير وغَمّازَتين لا يُمكنُ أن ينساهما أو ينسَى مَلْمَسهما ، كانتَا دائمًا تَستهْويانه . . تَجعلان قلبَه يَرتفعُ في الهواء ثم يَنفلقُ لِجزأين كحبةِ الفُسْتُق . . تبدو هادئة ، تتصرّفُ كأنّ شيئًا جميلاً لم ينشأ بينهما في يوم من الأيّام أو أنها لا تتذكرُ شيئًا، قامتُها الطويلة تَجعلها تَتحرّك كفرسٍ عربي أصيل مَفتول العَضلات. يُتابعها كلَّ يوم أثناء خروجها من الكليّة . . في يدها حقيبتها "السمسونايت" الرّماديّة اللون ، دائما جميلة وتزدادُ جمالاً ، يزدادُ هو قِصرًا ، كِرْشُهُ الذي يتراقصُ أمامه من تحت فانلته الزّرقاء المتواضعة أعطاه عَرضًا فَقِصرًا وشعره الْمُجّعد وأنفه الغليظة ونظارته ذات الإطار الأسود والعدسات السّميكة جعلتُه شخصًا

دميمًا منفّرا ، رغم ذلك كان هناك تَناسق بين مظهره ومظهر زوجته حيث كانت تَشْبهه كثيرًا .

لا زالت تُحدّثه بصلابةٍ ، حَدّثَته باقتضاب حَازمٍ عن أسرتِها وأولادِها ، دعته لِتعارفٍ عائلِي قالت الجيّرةُ القديمة ثم الزمالة تقتضي ذلك ، هزَّ رأسه مُؤيدًا كلامها ، عقله لا زال تائهًا داخل بُؤرة ضبابيّة مُعتمة ، نظراتٌ مهزوزة غير واثقة خرجت منه ، سببها عقله الشارد في تلك اللحظات السّالفة ؛ كسحابةٍ مُغيّمةٍ على عقلِه تفصلُه عن كلامها وعن ضجيج المدرجات ، تجعله كأنه داخل بُلورة زُجاجيّة محكمة الغلق على شكل كرة حيث لا يصل الهواء حتى إليه ، يُشْعِرُه ذلك أنه على وشكِ الاختناق ، تطير به ، تأخذه بعيدًا في رحلة داخل اللاوعي ، تُذكّره بِلحظاتٍ رائعة من حياته ، بينما هَلْوسة غير مرغوبة تُطارد تلك الأفكار الجميلة لِتُخرجَها من عقلِه ، تُقنعه أن تلك اللحظات من حياته لم تَحدثْ أصلًا ، تَقولُ له يَجب أن تَفيقَ ، تُحاولُ محوها من ذاكرتِه إلى الأبد ، تقول له ما هي إلّا أحلامُ يقظة كتلك التي تُراوده كثيرًا في حياتِه ثم يكتشف بعدها أنها حيل مُفتعلة من عقلِه الباطن ، يفتضحُ أمرُها عند أوّل اصطدامٍ بالواقع ... نبراتُ صوتها القوية الواثقة غير المرتعشة التي تُخاطبه بها تعزّزُ ذلك ، كأن شيئًا مَمّا في عقلِه لا أساس له من الصحة .

لا زالت رحلة اللاوعي تُحَلّقُ به عاليًا ، تَهبطُ به في مُهَجِ الطُّفولة ، أصواتُ الميكروفونات تَضجُّ في أذنِه ، تُعلنُ عن وصول البُلورة رقم

(٩٩٩٩) بسلامٍ ، يَهبط منها ، يَجدُ نفسه على ذلك السّلّم في بيت في شارع فَرعي من شارع رئيسيّ لا يَذكرُ اسمه ••• ترتفع ضحكات أطفال وضجيج من حوله •• تتبخر في الحال كدُّخانِ شِيْشَةٍ ، تتركه على السّلم في صمت من أسفلِه ومن أعلاه ، يَنْظر للباب المرتفع على النّظام الأثري القديم والمغلق أمامه ، تَفوحُ منه رائحةٌ نديّة كرائحةِ الذّكريات ، يصعدُ دورًا آخر وعينيه لا زالت مُعلّقة على الباب المغلق ، شقته تعلو شقتها ، يتذكر ألعاب الصبيّةِ الصّغار ــ الغميضة وكهرب والسّمكة في الوسط والْحَجلة ــ مع أطفال توافدوا من البيت والبيوت المجاورة ومن البعد حيث ناصية الشارع الفرعي الطويل ، يُحْدِثُونَ معًا ضجيجًا مُزعجًا يتفاخرون به أمام ضجيج الشوارع المجاورة ، لم يكونوا قد وصلوا إلى هذه السّن التي يُعلنُ فيها الأهلُ البدء في سحب بناهم الواحدة تلو الأخرى كلاعباتِ كرة يقرر المدربُ سَحبهن من المباراةِ فجأة أثناء اللعب دون إبداءِ الأسباب ، أو عندما يَنظرون إلي باقي اللاعبين وَيلْمَحُون ذلك الزّغب الخفيفُ كزغبِ الطّيور الوليدة و قد بدأ يُغَطِي أعلى شفاههم العليا كوباءٍ يتفَشّى بين الأولاد فيفضل الأهل سحب بناهم من بينهم خوفًا من العدوَى ، أَحبَ اللعبَ معها ، يُعجبُهُ الطريقةُ التي يهتزُّ بها شَعرُها شديدُ التّهدُّلِ وقد يُحالفُه الحظ ويُمسكه أثناء اللعب ويُفْركه بيده ليشعرَ بنعومتِه ، لعلّ من أجل ذلك فقط لم يكن يلعب إلّا معها وربّما كانت تُحِسُ به عندما يَمسكُ بأطرافِ شعرها ولا يتوقف عن التّحديقِ به من شدةِ لمعانه ونُعومتِه ، لا زال يتذكّرُ ذلك اليوم فوق السطح ••• كان ما حدث مُختلفًا

عن أيٍّ يوم آخر ... الجو غُروبًا والشفقُ قد سكبَ مَشروبه على الكون من حولهما ، عندما أَخذت تتأمله قليلا مُبتسمة وفجأة قَبّلَتْهُ على خَده قُبْلةً حَانية أحسَّ على إثرها بِسخونةٍ وَطراوةٍ لَذيذةٍ على خده ، قالت له:

" هل تَعرِفُ أنت تُشْبهُ ذلك الممثل السّينمائِي ــ لا أذكر اسمه – الذي نشاهده في الأفلام العربيّة ، عندما أنظر إليك أشعر أنني أشاهد فيلما سينمائيا" قالت ذلك وعيناها تَكاد تَثقُبُ عينيه ، تحرّكت يده بارتعاشٍ وتردّد وأمسكَ شعرها كما اَعتادَ أن يفعلَ دون أن تُلاحظ أو ظَنّاً منه أنها لا تُلاحظ ، بدا كنسيج ناعم من خامة غريبة الصّنع معقودة حول أصابعه .. طَبع قُبْلَةً مُرتعشةً خَجولةً غير مصدقة على شفتيها .. عندما فعل ذلك اندفعت من أمامه خجلةً وقد تَورّد وجهها بلونِ الشّفق هَابطةً درجات السّلّم في اِرتباكٍ .. في عينيها كان هناك نظرة وعلى شفتيها اِبتسامة شَعر معها أن الشّمس تَعود من غروبِها وَتُضِيءُ السّماء له وحده بوهجٍ يَعمِي الأبصار ، تابعها تَختفِي من أمامه ، أحسَّ أنّ فيها شيئاً جديدًا ، شعر أنها ازدادت طولاً عمّا كانت عليه من قبل .. تذكّر ما قالته له من أنه يُشبه ذلك الممثل السّينمائي ..ماذا كان اسمه؟!! لم تذكره له ..بعد هذا اليوم ولفترةٍ ظل يتعاملُ مع النّاس كنجمٍ سينمائي كبير منتظر ، غير أنه عندما نظر إلى المرآة لم يستطع تحديدَ من هو ذلك الممثل الذي يشبهه ، لم يَعدْ يَرها كثيرًا كما اعتاد دائمًا ، اختفت عن الأنظار ، يسمعُ صوتُها فقط في صعوده ونزوله من وراء الْجُدران ، عندما سأل عنها أجابته أختها الكبيرة..قالت:

" آسفة إنها مشغولة الآن بأشغال في البيت" ، كان على شفتيها تلك الابتسامة الغامضة التي لم يفهم مغزاها و نظرة غريبة أحسَّ أنها

تتجه إلى ذلك الشعر الخفيف الذي بدأ ينمو أعلى شفته العليا ، أغلقت الباب وانغلقت أشياء كثيرة داخله ، غير أنه لمحها تَجلسُ لمشاهدةِ التلفاز وقد اَلْتقَتْ نَظراتُهُمَا لِوهلةٍ ثم توارتْ خلف الباب الخشبي الأثري العملاق ، ذلك الوَجوم والضيّق غير المفهومين عَشّشا داخل نفسه ، لم يدر ما سببهما ، لم يكن يفكر إلّا في تلك القُبلة فوق السطح ، و جملة واحدة تُعِيدُ نفسها سَبعين مَرةً في الدقيقة الواحدة مع كلّ نَبضة من قلبه ـــ أنت تُشبه ذلك الممثل الذي نشاهده في الأفلام العربيّة ـــ ويعاودُ تَأمُّل نفسه في المرآةِ مُحاولًا إيجاد النّجم خلف هذا الوجه ، رُبّما هذا ما يُريده منها أن تُخبرَه باسمه أو تُشيرَ له عليه في جهاز التلفاز ثم تنصرف ولا شيء بعد ذلك ...وبينما ينظرُ لنفسه في المرآة كلّ قليلٍ لا يكف عن التّدقيق في هذا الشعر الآخذ في التزايد فوق فمِه حتى صار خطاً غليظاً ذا لونٍ أسود قاتم ، انتقلت مع أهلها بعد فترة في شقة كبيرة بحي فاخر .. بعدها بلغه أنها تزوجَتْ طبيباً كبيراً ، وها هي واقفة أمامه الآن تُحَدِثُه بتلك اللُّكْنةِ الصّارمة التي تَختلف عن تلك الطريقة التي عهدها بها ...عندما رآها وقد كَبرتْ وأصبحت هكذا امرأة ناضجة مثيرة لم يكن يرى فيها إلا تلك اللحظات .. وشيئاً آخر .. لم يُخبره أحد غيرها أنه يشبه نَجمًا سِينمائيًا .. يتمنَى أن تتوقفَ عن ذلك الأسلوب الحاد الذي تَتَحدثُ به ، أن تقولَ له لا زلت تشبه ذلك النجم .. هي فقط تراه هكذا ، أن تبتسمَ تلك الابتسامة وتتلامسُ خدودهما مرة أخرى وتقول له: هل تتذكر تلك اللحظات ؟! غير أنها مُسترسلةٌ في حديثِها الجاد الذي لم يسمع منه شيئًا ... رُبّما أن كلّ هذا بالفعل ما هو غير أحلامِ اليقظة ومن صُنع خيالِه وأن تلك المرأة الواقفةَ أمامه لم يَجر بينهما أيُّ شيء قبل ذلك .. إنه مُقتنعٌ بِشيء مُؤكد وهو أنه عندما ينظر في المرآة لا

يرى غير هذا الشخص دميم الوجه ذو الشعر المجعد والأنف الغليظ والنظارات السميكة وأنه لا يشبه أيُّ نَجمًا سينمائيًا ، ورُبّما حديثُها الجاد الآن يؤكد عدم صدق ما يُروّجه عقله له .. أجابها منتبهًا نعم نعم سنأتي أنا والأسرة إن شاء الله ، ردّت عليه باقتضاب : أنتظر ذلك في القريب وانصرفت ..تابعها بعينيه وهي تَمشي في ثقة امرأة قوية متحدية ، جسدها يتساقط جمالاً بلا حدودٍ ، تَبتعدُ كشمس تَغْرُبُ ... ولكن التفاتة صغيرة منها فجأة نحوه وتلك النظرة المرتبكة ذات الرنين القديم والتي وَمضت منها فهزّت خطواتها المتزنة عندما اكتشفت أنه يتابعها ، ثم تلك الابتسامة القديمة التي أرادت أن تُعالج بها ارتباكها و التي أفلتت منها دون أن تشعر جعلته مُتأكدًا الآن أن ما حدثَ بينهما لم يكن حلم يقظة بل لحظات جميلة مرّت في حياته ولا يُمكن لعقلِه المريض المخادع أو حتى هي بنبرتِها المصطنعة الواثقة أن تقنعه أن ذلك الأمر البعيد لم يَحدث قط...وشيء آخر أنه رُبّما بالفعل يشبهُ نَجمًا سينمائيا كبيرًا لكنه لا يعرفه وعليها هي أن تخبره الآن من هو ذلك النجم !!!

جُمْلةٌ رَقميّةٌ اسمُها رَنْدَا

البدايةُ رسالةٌ رَقميّة على شاشة حاسوبه جعلتُه ينتفضُ •• بعد ذلك بدأ الاسمُ يَدقُ بقوةٍ في عقلِه ••• رندا .. رندا .. رندا ••لا تفعلِي ذلك بِي •• الاسمُ رندا •••يهزّه كطبولٍ إفريقيّة تُنْبِئُ بالخطرِ •• تَنْقُلُهُ لفحاتٌ إسكندرانيّة وقت الذروةِ ونسمات باردة تتوالدُ وقت الغروبِ لما بعد الفجر ، لا يتوقفُ عن البحث •• لا يَعرفُ كيف يجدها ، لا يعرف شكلها قد يصادف أن يجدَها جالسةً على كافتيريا نصار أو "الريفيرا" في الرِّمل ، قالت له ذات مرة أنها تسكن في المنشية ، منزلُها من البيوت الأثريّة التي تُميّزُ الإسكندرية لِحِقْبةِ بداية القرن العشرين ، وأنها من أسرة بسيطة ممن استوطنوا إسكندرية منذ عشرات السنين ، هي طويلة رشيقة جميلة نوعاً ما ، هي قالت ذلك ،أخبرها أنه كاتب قِصصِي، ذُهِلَتْ من ذلك ، أراها مواقعَ قِصصِه الرقميّة وصورتَه ••• تُحدثُهُ عن نفسِها كثيرًا ••• يُهْيئُ إليه أنها تُنْشِئُ تاريخاً لنفسِها داخل عقله ، أو تَضعُ خريطةً لحياتِها ، أخبرتُه أنها تَهوَى شربُ فنجان القهوة مع والدها على المعاش في الصباح الباكر بكافتيريا نصار أو الريفيرا ، وأنها تَعْشقُ رمال "ستانلي وسان" و "فيكتوريا" وقت الظهيرة ، وأنها شغوفةٌ

بهواء "اسبورتنج وكامب شيزار" والشاطبي في وقت العصر ، وأنها لحظة الغروب توجد عند بئر مسعود حيثُ تُواظبُ على رَمِي العملةِ فيه كلَّ يوم حتى تتحققَ أمنيتها ، لم تُخبره ما أمنيتُها ، كيف كانت البداية ، يتذكّرُ ، دردشة على الشبكة العنكبوتيّة استمرت سنتين ، ليست دردشة عاديّة ،أراها نفسه ، ردّت بكلماتٍ إعجاب شديدة ، رَفضتْ بشدة أن تُريه نفسها ،قال لها إما تَكوني قبيحة أو شديدة الجمال ، ضحكتْ بِخفةٍ ، قالت لو رأيتني ستتعلّق بي ، وأنا لا أريدُ ذلك ، سألها عن السبب ، لم تُعلّق ، لم يَضغطْ عليها ، في البداية قامت بوضع شروط لكي تتكلّمَ معه ، اشترطَتْ هي عليه ذلك ، قالت له مهما حدث يجبُ أن لا تَزِيدُ علاقتُنا عن الأخوةِ ، قالت له أيضا شرط أساسي إذا وقعت في حبي سينقطعُ الاتّصالُ ، ضحك ، قال أنا لا أقعُ في الحب بِسهولةٍ ، كانت الْمُحادثاتُ بينهما لا تَنتهِي لم يَتركا تَفصيلاً دقيقًا إلّا تَحَدّثا فيه ، شخصيتُه وشخصيتُها ماذا يُحب وماذا يَكره ، ملابسُه وملابسُها حتى ملابسها الداخليّة، لونُها ومقاسُها ونوعُ القُماشِ ، أخبرها بأسماء أصدقائه ، كيف يتكلّمون ، أين يذهبون ، متى يفطر وماذا يفطر ،غداؤه وعشاؤه ، ماذا يحب ويكره ، تخيّلا نفسهما يجلسان معًا على مائدة الطعام ، اختارت أصنافاً مُعينة أخبرها أنه يُحبُها ، تَناولها بِشغفٍ ، أَحضرتْ الحلْوَى تناولاها معاً ، شربا الشاي في الشّرفة ، اختارا شرفة منزلهما تُطِلُّ على بحر إسكندرية ، اختار لها شاطئاً هادئاً ، قال اسبورتنج ، قالت

يُعْجِبني حتى نتناول في المساء المثلجات على كافتيريا رضا ، قالت من يَذهبْ إلى اسبورتنج يَجبْ أن يجلسَ على كافتيريا رضا ويتناول المثلجات أُحِبُ الجلوس عليها ، صار يشعر برائحة الهواء الذي تتنفسه عبر خط النت ، ينقله له النت على هيئةِ ذبذبات تَسرِي في جسدهما معاً ، تحتويهما ذبذبات النت في الساعات الليليّة المتأخرة ، أنجبَا طفلةً صغيرة ، بضفائرٍ سوداء طويلة وفُينكات حمراء مع فستان أحمر بكنيش وحذاء فضي كأميرة صغيرة عمرها ست سنوات من حدوتة خياليّة ،أنجباها في ليلة واحدة ، تقفز بينهما على هيئة فلاشات تعبر مسافات رقميّة ،لم تُوافقْ على أن يكونَ له طفلةٌ منها إلّا بعد أن أخذت منه وعداً أن يظلّا أخوة ، ضحك ، قال موافق ، فَكّرَا معاً ، أسماها عبير ، ملأت عليهما حياهما الرقميّة ...شَغَلِتْ حيزًا كبيرًا بشقاوتِها وبراءتِها وصوتِها الإلكتروني الجميل تَنَقلَا مع طفلتهما ذات العيون السوداء الخشّابي ، عاشا أيّاماً جميلة ، تترّهَا على شواطئ إسكندرية من المعمورة لِلْعَجمِي في ساعةٍ واحدة ! ، شربَا القهوة على نصار والريفيرا ورضا في نفس الوقت ، تَمَرّغا في رمال ستانلي وبنيا قصوراً وقلاعاً رمليّة وأخرى حقيقيّة من طوبٍ وأسمنت هدمتْها الإزالةُ، سَبِحَ معها تحت كوبري ستانلي في الثالثة صباحاً ، تعرّا من ملابسهما تحت ظلالِ الإضاءة الضعيفة أسفل الكوبري من جهة البحر، تَعانقتْ نظراهما الباسمة المحدّقة على أثر لمسات جنسيّة عابسة ، رمى معها العملة في بئر مسعود ، تخيلاه بئر عسلٍ وليس

ماءً مالحاً ، قفزا فيه معاً ، بَحث عن أمنيتِها الخفيّة ، لم يَجدْ إلّا عُملات لأماني غير مُتحققةٍ ،خرجَا معاً من البِئْر من ناحية البحر ، سألها عن أمنيتها التي تُخْفيها عنه ، رفضت ، قال لها يَجبُ أن نَرى بعضاً ، حددِي مَوعداً، أجابته : لقد اتفقنا أن نكونَ أخوة فقط ، سَخِرَ منها ، ردَّ بغيظٍ :أخوة ولدينا طفلة ، صرّح لها بإعجابه الشّديد بها حتى دون أن يراها ، قال لها لا يهمُني كيف تَكونين ، ولا يَفْرِقُ معي أن تَكونِي طويلة أم قصيرة ، بيضاء أم سمراء ،جميلة أم دميمة .. فقط أريدك.. ، أجابته : بيننا اتفاق ، أحسَّ في صوتِها رغبة البكاء ، رددَتْ بهستيريّة بيننا اتفاق، قال لها أحبك ...انقطع الاتّصالُ ، في اليوم التالي فُوْجِئَ بتلك الرسالة على شاشة حاسوبه ، كان مكتوباً فيها: "لم أردك أن تتعلق بي ، أنا مريضة بالقلب ، سأجرِي عملية ، إن نجوت أمنيتي أن يكون لي زوج مثلك ، ملحوظة أنا لم أحب أحداً مثلما أحببتك ...تمنيّت أن تكون لي حياة مثل كلّ بنت .. إذا لم أنج أرجو أن تُخَلّدَ ذِكْرَى حبنا في قصة من قِصصك " الإمضاء رندا ... أحسَّ أنه داخل فيلم قديم لفاتن حمامة ، لم يعجبه الدور ... يتنقل كالمجنونِ بين المنشيّة وبيوتِها ودكاكينها القديمة ، يجلسُ على نصار والريفيرا ، ينتظرُ على كافتيريا رضا باسبورتنج ، يتمشّى على رمال ستانلي ، يبحث في بئر مسعود عن عملة فِضيّة تَخُصُها، الرسالةُ تُوْمِضُ في عقلِه مُنذ أسابيع ، عقلُه يُواصلُ ترديد جُملة واحدة ، لا تَفعلِي بي ذلك يا رندا ،

يبحثُ عنها في وجوه الفتيات ، يتذكرُ وجبة غداء شهيّة وطبق حَلْوَى من يد زوجتِه وحبيبته راندا يعقبه بكوبٍ من الشاي مع ابتسامةٍ في شرفة تُطِلُّ على شاطئ اسبورتنج ، أو نُزهة في قارب سريع مع طفلتهما الجميلة عبير بوجهها الفلاشي الجميل على شاشة حاسوبه ،يتساءلُ عن شكل أمها ، يواصل البحث، يتخذُ طريق الكورنيش من أدنى الإسكندرية إلى أقصاها ، شَعْرُه أشعثُ غير مَنظمٍ ..لحيتُه طويلة ، يواصل البحث عن جملة رقميّة اسمها رندا اختفت فجأة من على شاشة حاسوبه .. يبحث في حاسوبه بعد غياب ، يَعْثرُ على الرسالة المنتظرة .. كانت مُوجزة "توفيت رندا السبت الماضي" الإمضاء ميسون ابنة عم رندا ..حالة من وجومٍ تُصيبُه ، من ميسون ؟ .. أيُّ سبت ؟ .. لوحة مفاتيح حاسوبه تُرددُ معه في كلمات متكررة رندا رندا رندا...

فَتاةٌ مُتحرّرةٌ

ضَحَكتْ ساخرةً ، هَزأتْ بتلك الفكرةِ ، قالتْ إن وجود رجل مع امرأة لا يَعنِي بالضرورة علاقــة غراميّة ، اِستمرتْ في سخريتِها ، قالت: "هذا هو التخلفُ بعينه ، هناك موضوعات أهم من ذلك الأمر التافه" ، أعجبُه تحرّرها وانطلاقِها مع احتفاظِها بعفّتها ، قال: " قليلاً ما أجد فتاة مثلك" ... توطّدَتْ صداقتهما.

تكلّما عن كلّ شيء ، عن أمريكا وفتوحاتِها المسيحيّة ، العرب وتردي أحوالهم والدول المتقدمة والمتأخرة ، والمياه في الشّرق الأوسط ومَجاعة أفريقيا ، والحرب في السودان والشّيشان ويوغسلافيا وسقوط تمثال صدام ورفع العلم الأمريكي بأيدي العراقيين ، علّقا على ذلك كثيراً ، قالا يذكرنا بعهد الفتوحات الإسلاميّة وترحيب البلاد المفتوحة بالمسلمين ، تحدّثَا عن الكُرة بأنواعِها طائرة ويد وقدم وسلة وتنس وكلّ ما اتخذَ هيئة التكْوير ، علّقا على تردي أحوال المنتخب القومي لِلكُرةِ ، تَسابقَا في ذكر أسماء لاعبي الزمالك والأهلي ، تكلّما عن الغَلاء والجنيه وارتفاع سعر الدولار واليورو ، قال لها السكر والزيت ، أخبرته بسعر الأرز والسمن وفول الغلابة ، تكلّما عن السرقات والموظف الشّحاذ وآخرين يَمْلكون المليارات ومساجين من أجل عشرات الجنيهات ، تَحدّثَا عن رغيفِ الخبز الأسود الصغير ومحلات كباب بيع لحم الكلاب والحمير ، أكملت له: " ولانشون

الفئران وجبن الفورمالين وفاكهة الهرمونات وأحزمة مسببة العقم وارد إسرائيل" ، تذكّرا إسرائيل ، اِقْتطعَا بعضاً من وقتهما للتنديد بإسرائيل ، أبْدَى جدّية في ذلك ، أُسقطت من عيونهما قطرات حزينة على فلسطين ، تَطرّقَا من ذلك إلى الممثلين والممثلات والرّاقصات التائبات ، وتَجادلَا في أموالهم حلالاً أم حراماً ، ذكرا مذيعات رشيقات وأُخريات سمينات ، تسابقَا في ذكر أفلام نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ، تكلّما عن مُحاولات الهبوط على المريخ والاستنساخ وخبز الكيزر المصنوع من فضلات الإنسان في اليابان والقمر مقبرة لدفن الموتَى مُقابل الدولارات ، تكلّما عن حرارة الأرض وذوبان جليد القطب الشّمالي واختفاء اِنجلترا بعد مائة عام ودخان المصانع والسيّارات.

قال لها: الجوُ يَزدادُ حرارةً كلّ يوم.

ردَّت عليه: نعم الجو اليوم شديد الحرارة.

قال لها: أمس كان جيداً قليلاً .

قالت له: كان أوّل أمس يوماً شديد الحرارة.

قال: سمعتُ أن الجو سيتحسّنَ غداً.

قالت: نعم سمعت ذلك أنا أيضاً.

توقّفَ عن الكلام، توقّفَتْ عن الكلام، أحسَّا بنضوبِ الموضوعات، طَالَتْ فترة صمتهما، شَعَرَا بالحرج من عدم وجود ما يَتحدّثون فيه ، ابتسمَا لبعضهما في اِرتباكٍ ، اِقترب منها ، اقتربت

منه في حذرٍ، أمسك يدها يُلاطفها ، رأت أنه من غير اللائق أن تَرفض كي لا تُحرجُه ، تركتها له ، تَشابكتْ أصابعهما ، ضغطَ بشدةٍ ، شَعُرَتْ بِدغدغةٍ في جَسدِها .

بعد دقائق قليلة يُمكن إحصاؤها انصرفت مَذهولة غير مُصدقةٍ بينما تُلَمْلِمُ نفسها وَتُصَفّفُ بأصابعِها اشتباك خُصلاتِ شعرِها ••• على السرير وراءها وفي مُنتصف الفِراش بالتمام خلفت بُقعة من دماء صامتة •

كَائِناتٌ ليست لأيٍّ أحدٍ

يَجلسُ على نفسِ المقهَى كلّ يوم ، يتأمَّلُ عقارب السّاعة التي تُشِيرُ إلى الخامسةِ مَساءً ، الوقتُ يقتربُ من الغروبِ ، يعلمُ أنها ستمرُّ من هذا المكان ، هو مَدخلُ شارعِها حيث يقبعُ منزلُها ذو الثلاثةِ طوابق بشُرفاتِه التي تَمتلئ بشجراتِ الورود والياسمين ، يراها ترويها بنفسها كلّ مساء ، اختار الجلوس على هذا المقهَى بناصيةِ شارعها الفرعي المتقاطع مع شارع طلعت حرب الرئيسيّ بالبلدة ، ينظر إلى مرمى البصر على امتداد الشارع الرئيسي بين السيّارات الذاهبة والآتية ، عندما تَظهر له كلّ يوم تبدو كحلمٍ قادم من بعيد يَسعَى ليتحققَ ، يَرْتَعِشُ قلبه وقتها ، تزداد ضرباته ، لا يعلم ماذا يفعل لِيُكلّمها ، يَخْشَى من صدمة عاطفيّة تُسقطه أرضاً ، ينتظرُ الوقت المناسب لِيُفاتِحَها بمشاعرِه ، يقلّبُ نظره ثانية بين السيّارات ، تظهر في الأفق ، يَحدثُ ذلك كلّ يوم أثناء عودتِها من عملِها كصيدلانيّة ، يُمَيِّزُهَا بخُطواتِها الواثقة ، ترتدِي حذاءً عالي الكعبين رغم جسدها الممشوق بتناسقٍ ، بلوزتُها الصغيرة تُناسب وسطها النّحيف مع تنورتِها الطويلة حتى القدمين ، تبدو كموديل تُفكّر قبل أن تضعَ أقدامها على الأرض ، جميلةٌ بيضاء بوجهٍ بَيضاوي وعيون سوداء واسعة ، تَتَهادَى خُصلاتِ شعرِها النّاعمة على جبينها مع كلّ نسمة هواء صغيرة تمرُّ بجوارِها ، تلفت برقتِها وجوه البشر ،

تستديرُ إليها العيون ، تلاحقُها ، تأكلُها من أعلاها حتى أسفلها ، لا تُعيرُها اهتماماً ، تتعاملُ معها كهواءٍ غير مَرْئِي ، تُحِسُّ بأنوثتِها .. تَشعرُ أنها كائنٌ جميل فريد لم يُصْنَعْ مثله ثانية ، ظَهر ذلك من ثقتِها في نفسها عيناها في منتصف رأسها ، لا تَحِيدُ يميناً أو يساراً ، لا تَلْتَفِتُ إلا باتزانٍ ، تبدو كتحفة فنيّة تزداد بريقًا ولمعاناً كلّ يوم .. لقد عبرت الشّارع إلى الجهةِ الأخرَى الآن ، تَصعد فوق جزيرةِ الطريق المبلطة ، تمرُّ بين حقلين لأزهار القَرَنْفُل البَنفسجيّة غُرِسَا في جزيرة الطريق ، "احذري وأنت تعبرين الطريق ، فأنت غالية ،أنت كائن ليس كأيّ كائن آخر" يريدُ أن يقولَ لها ذلك ، تعبرُ الطريق في نفس الثقة دون أن تَزد من سرعتِها ولو قدر أُنْملةٍ ،تَراها السيّارات القادمة فتتوقف لتدعها تَمُرُّ مع ابتسامات آملةً مُعلّقة من قادة السيّارات ولكنهم لا يَحْصلون على شيء في المقابلِ ، حتى لو كان ذلك الشيء مُجرد ابتسامة ، تَنطلِقُ السيّارات خائبة الأمل ، يسعده ذلك ، إنها ملاك نزل خطأ إلى الأرض ، إنها من كائنات ليست لأيِّ أحدٍ ... ها هي على الجانب الآخر الآن تَسيرُ في اتجاه المقهَى الجالس عليه ، تدير رأسها قليلا لأحد محلات الملابس ، يتأملُ بطرفِ عينه حُسن اختيار ملابسِها ، تُحرّكُ عينيها الواسعتين نحو واجهةِ المحلِ الزُّجاجيّة ، تتباطأ .. تَستعِيدُ سرعتها ، عندما تمرُّ من أمامه كلّ يوم تُمِيّزُه عن باقي البشر بنظرةٍ مع حركة رقبة لاإرادية ، إنه متأكد من ذلك ــ لا إنه غير متأكد ــ لماذا ستنظر إليه دوناً عن باقي البشر ، عندما يتفحصُ نفسه في المرآة بدا من هيئتِه أنه ليس سيئاً وهو ليس شديد الوسامة ولكنه شخص عادي ، كيف ستنظر

بهيئتِها تلك المبهرة لِمُجرد شخصٍ عَادِي ، لا يمكنُ أن يصدق ذلك يدور هذا الحوار في رأسِه كلّ صباح ، يُقْنِعُ نفسه في النهاية أنها من كائناتٍ ليس لأيِّ أحدٍ .. ها هي قد اِقتربَتْ ، ها هي على بعد خُطوات ، يَرْتَجِفُ قَلبُه ، تنظر إليه ، تُطِيلُ النّظر ، تَلْفِتُ رقبتها نحوه بأكملِها ، يشعرُ بأن شفتيها ترتعشُ كأنها تُريدُ أن تبتسمَ ، أن تقولَ شيئًا ، تُواصِلُ السّير في خطواتٍ واثقة ، شعر بها أنها اقتربت من رصيفِ المقهَى الجالس أعلاه ، استطاع أن يراها لأول مرة بهذا القرب ، خُصلات شعرها المتطايرة على جبهتِها فحرّكتها بأناملِها الصغيرة كاد أن يلمسَها ، رائحة جسدها المعبق بالياسمين لا تزال في أنفِه ، عيناه لم تَرْمِشْ بعد من المفاجأة ، تمَنى أن يأخذها بين ذراعيه ، تَخَيّل نفسه معها بمفردِهما في بيت الزوجيّة ، تمادَى في خيالاتِه حتى سقطت بين أحضانه ، يفيق ، يواصل ارتشاف مشروبه الساخن ، عندما عاد إلى المترل ، توجّه إلى المرآة ، أَقْنَعَ نَفْسَه أخيرًا أنها لم تَكُن تنظر إليه ، ربما شيء خلفه ، لفت انتباهها ، إنها لا تنظر إلى أحد فلماذا ستنظر إليه ، خمّنَ أن اقترابها من الرصيف الجالس عليه إلى هذه الدرجة بِحيثُ لم يَكُن بينهما أكثر من ثلاثين سنتمترا مربعاً ؛ خَمّنَ أن ذلك بسبب السيّارات المسرعة التي اقتربت منها كثيراً ، في النهاية أقنع نفسه أنها من كائناتٍ ليست لأيِّ أحدٍ .

بعد عام عندما كان يجلس بنفس المكان مُنتظراً رؤيتها ، لم تكن تَمرُّ إلّا يوماً واحداً في الأسبوع حيث أنها صارت الآن تَعيشُ في بيت زوجِها ، رُغم ذلك لم يتوقف عن المجيء إلى المقهى كلّ يوم مُحاولاً تجسيد تلك المشاعر والأفكار المشتعلة داخله ، ها هي قادمة برونقِها

وسحرِها الجميل إلّا أنها لم تكن بمفردها بل كانت تَمسكُ بذراعِ زوجها قصير القامة بِكرشِهِ العريض البارز الذي يتحرّكُ دائماً إلى الأمام قَبْلَهُ ...

عندما كان يعود إلى منزله في تلك الأمسيّات الكثيرة التي رآها فيها مع زوجِها كان يُقْنَعُ نفسه بشيء واحد فقط ..ألّا وهو.. أنها قد أجبرت على الزواج من ذلك الرجل .... فهي كما يعرفُها " من كائنات ليست لأيٍّ أحدٍ ".

اِكْتشافٌ

جيران ، صبية صغار ، فتى وفتاة ، يُحِبّان اللعب معاً ، يُلاعِبُها الْحَجلة وتلعب معه الكرة ، لم يُعِرْ من يصفه بالبنوتة اهتماماً لِلعبه مع فتاة ولم تَهتم هي بمن يصفُها بالصبي؛ لأنها تلعب الكرة مع ذلك الصبي ، دائماً معاً في الأجازات المدرسيّة ،يكبران معاً ، إمّا في مترله تلعب بألعابه الصبيانيّة أو عندها في مترلها يلعبان معاً بالعرائس البلاستيكيّة أو القماش أو يلعبان مع أخوها الصغير الغميضة ، يَختبئان معاً ويبحثُ الصغير عنهما ، يعد واحد .. اثنان .. ثلاث ويُغْمِضُ عينيه ، يَختبئان كَكلِّ مَرةٍ .. يبحثُ ويجدهما داخل الدولاب ..ويبحث ويجدهما تحت الفِراش .. ويبحث ويجدهما في الشُّرفة ويبحث ويبحث ، اختبأنا هذه المرة تحت الغِطاء المفروش على السرير ، يضحكان ، لن يعثر عليهما هذه المرة ، ينكمشان معاً حتى لا يكشفهما من أعلى الغطاء ، يُحَدّقان في بعضهما من أسفل الغطاء ، يبتسمان بخُبثٍ ، صوتُ الصغير لا زال في الصّالة أين أنتما لقد تعبتُ ، يتهامسان ، يضحكان ، يَختفيان أكثر في حضن بعضهما، تتشابكُ أرجلهما أكثر فأكثر من تحت الثّياب ــ " هُس لا تصدري صوتا ، سيعثر علينا" ــ أين أنتما ؟! ، يشعران بحرارة الأرجل المتلاصقة ، لم يكونا قريبين إلى هذا الحد في أيِّ وقت ، لو كبرت معاً ستتزوجه ، يُفكر مثلها ، تُفكر في لعبة العروسة والعريس ، تلعبها

معه بعرائسها البلاستيكيّة تلك التي تَضعُها في الكرتونة ، تَرصُّها وتَضعُها معاً على السرير الصغير ، تُطعمهما بذلك الأكل البلاستيكي.. تُفكّر ماذا يَفعلُ الكبار أسفل الغطاء، يُفكّر بنفس الفكرة ، يصلان لنتيجة معاً ، إنهما يَحضنان بعضهما تعبيراً عن الحب، تُعجبها الفِكرة ، لازالت تَحُدّقُ في عينيه مُبتسمة ، يبادلُها النّظرات ، هل من الممكن أن يكون قد أحبها ، إنها تُحبه ، ستختاره شريكاً لحياتها ، تَقرصُ على شفتيها من الفَرحة ، صوت أخيها الصغير أكثر اقتراباً ، أين أنتما ؟ لقد تعبتُ ، يزدادَا انكماشًا وتشابكاً تحت الغطاء صدورهما تزدادُ التصاقا والرجلين بالمثل ، تتسارعُ أنفاسهما ، تُحِسُ بِخدوده السّاخنة وأنفاسِه المتلاحقة ، تتأملُ ذلك الزّغب الصغير أعلى فمه ، فجأة تدفعه بعيداً عنها مُرتعشة ويدفعها بعيداً مُستغْرِبا ... ينظر إليها مَذهولاً ... لا يدرِي ما ذلك الموضع الخفِي في جسدها الذي طالَه من بين ملابسِها بينما تَنظر إليه لا تعرفُ ما ذلك الشيء الذي تَحرّر من ثيابه المترهلة وانزلق داخلها من خلال ملابسها ، تكشف الغطاء ، تشد أطراف جلبابها المرفوعة على رجلين بيضاوين مضمومتين من الخوف بلمعتِهما كقطعِ أبنوس أملس ، يتزلان من الفراش واجمين ... صوت الصغير يعلن لقد وجدتُكما .

أَشيّاءُ عادِيّةٌ

كانت تَنظرُ لِلأشَيّاء حولها كأنها لم تكتشفْ أو تخترعْ مــن قبــل ، تَعْجزُ أن تَكْتمَ دهشتها داخل قَفصِها الصّدرِي الأنثــوَي الــصّغير ، يُعجبُه ذلك منها يُحِسُّ معها كأنه يَكتشفُ العالم لأوَّلِ مرةٍ أو يــراه كما لم يره من قبل حتى صغائر الأشيّاء التي تصادفهما ٠٠٠لا يعرف هل كان ذلك سَذاجة بالغة منها أم ذكاء حاد ، كُلُّ الــذي كــان يُدركه هو تلك السعادةُ التي يَشعر بها عند رؤيتِه تلك النّظرة على عيونها تُحدّقُ في أشيّاء كان يعتقدها أشيّاء عادية أو عندما يُحِــسُّ ذلك الإحساس خارجاً بابتسامةٍ ذَاهلة من بين شفتيها الــصغيرة أو قفزة فرح وبهجة فُجائيّة ٠٠ يَشعرُ وقتها أنه حَي ٠٠٠ تذكرها فجأة وهي في الطائرة بجوارِه مُتجهين لبلدِ عملِه ، ابتسم لذلك ، رغــم أنه اعتاد ركوب الطائرة إلّا أنه عندما نظــر إليهــا ورأي عينيهــا المغلقتين وخُصلة الشّعر الظّاهرة دون قَصد من تحت طرحتها السّوداء كلوحةٍ مُعبرة بوضوحٍ عن خُطوطِها وألوانِها ويدها الرقيقة البيــضاء تَزْحَفُ في اِرتعاشة على رجله لِتلامسَ أصابعه وتقبض عليها بِكــلّ قوةٍ لحظة إقلاع الطائرة ، وقتها أحسَّ أنه طائر يَملكُ ريشاً وجناحين وقدمين صغيرتين يقف بهما على نوافذ و قمم المنازل لتأمُّلَ العالم من حولِه ووقتها غَمِضَتْ عيناه مثلها دون أن يقصدَ وانتشَى صــدره

باكتشاف أنه طائرٌ فعلاً في السّماء ، وعندما رأي الأبنيــة صــغيرة كعلب الكبريت والشوارع كخيوط سوداء متشابكة ، وقتها اقترب من الشبّاك مَذهولاً وكأنه لم ير هذا المشّهد من قبل٠٠ حتى في تلك الليلة ٠٠ ليلة زفافهما ، شعر معها أنه الشّخص الوحيد في العــالم القادر على فعل ذلك ، بعدها اكتشف أن البشرَ لا يفعلــون غــير ذلك ٠

كان ينظر إليها خِلْسة وهي جالسة بجانبه في الشّاحنة الجبليّة القديمة تتجه بهما إلى أعلى ، متخذةً مَنحَى صاعدا ، كأنها تَــسير علــى العجلتين الخلفيتين فقط أو كأنما تتصّعدُ في الــسّماء ٠٠٠ وبينمــا جَلست هي بجوارِ النّافذة في عباءتِها السّوداء المطرّزة بخيوط ذهبيّــة جلس هو في المسافة الضيّقة الفاصلة بينها وبين سائق الشاحنة رباعية الدفع التي واصلت انطلاقها المبطِئ في طريق ضيّق مُلتوٍ صاعدٍ مارٍ بين هوة سَحيقة كطريق الصراط الفاصل بين النّجــاة أو الــسُّقوط في الجحيم ولسان السائق يُدندنُ بقصيدة جبليّة غير آبه ٠٠وقدمُــه اليُمنَى تَضغطُ على دواسةِ الوقود بِــشدةٍ ٠٠ و الــسيّارة تزعــق بِعنفٍ٠٠ و السُّرعة لم تتعد العشرين كيلومتراً في السّاعة وصوتُ دقات قلب قوية لا يعرِفُ من أين تأتيَ ، هل تأتيَ منــها ؟! أو مــن السائق الذي يُواصل دندنتُه بلا انقطاعٍ أو من داخل ذلك الصدر الكائن أسفل رأسه ، وبينما يتأملُها باختلاسٍ من حينٍ لآخر – مُحاولا أن يستشفَّ منها تلك النّظرة التي تُعيدُ في داخله تركيــب

الأشيّاء وَتُضفِي عليها سمة شبّقة لم تكن فيها من قبل – يتساءل بين نفسه هل تشعر بالخوف من ذلك المجهول الذي لا تعلم عنه شيئا أم أنها ستفاجئه الآن قائلة ما أجمل تلك الصحراوات التي نمر بها أو ما أجمل أشجار الشوك! ولكنها لم تَنطق بعد ، لا زالت عيناها الواسعة الملائكيّة تُحدّقُ في الطريق الوعر بِصخورِه ورمالِه وأشواكِه كأنها تُعيدُ تركيبه داخل عقلها من جديد ليبدو بصورةٍ أفضل .. يتأملُها دون أن تَلحظَ ، سمعُها تَنطقُ أخيراً ، صوتُها الرقيق الهشُّ لا يتناسبُ مع خُشونة الصّخور وحدتِها .. يتفتتُ حروفاً صغيرة على جانبي الطريق ، تُكرّر كلامها بصوتٍ أعلَى: " مناظر جميلة لم أر كل هذا الكم من الجبال والصخور في حياتي"، ابتسم لها دونَ أن يُعلّقَ ، لم يُخبرها بعد عن زوابع الهواء التي تَهجمُ وتقتحمُ بين يومٍ وآخر من قلبِ الصّحراء ، تبدو كماردٍ قادمٍ إليه مُحملاً بِكُلِّ ما يُصادِفُه في طريقِه إلى بيتِه ، عندما يراها آتية من بعيد يعرف أنها ستقصدُ بيته رغم أنها تتخذُ اتجاهات مختلفة يَميناً ثم يساراً وتُسلكُ جميع السبل التي لا تُؤدي إلى بيته ، وعندما يبدو لأيِّ كائن كان أنها بعيدة بعد الأفق ، تُغيّر اتجاهها في اللحظةِ الأخيرة وتَضرِبُ بيته بِكلِّ قوة وعزم وتُفرِغُ كَلَّ طاقتِها على هيئة أكوام من تراب وقاذورات فوق الأشيّاء، يفضلُ أن تَكتشفَها بنفسها لعلّها تُضْفِي على تلك الأشيّاء الْمُتَرّبة إشراقا تَجعلها تبدو له شيئا آخر غير ما تَبدو عليه فتخفف عنه غربته ، عندما أخبرها قبل السّفر عن المكان الجديد

الذي يعملُ فيه وسط الصحراء وراء قمة من القمـــم في الجنـــوب الغربي السعودِي فاجأته بصوتِها الذي لم يُصنفه حـــتى الآن غـــير أن يكون نوعاً من زقزقة عصافير في ساعة نَهَارِيّة مُبكرة ... قالت له: هل ستكون معي في قلب الصحراء أم لا ؟! إذن أنا معك ، امتـــزج صدى كلامها مع دقدقة الطريق غير المستوي وصوت سائق الشّاحنة لازال يدندنُ بقصيدةٍ مُطولة لا تنتهِي أبداً كأنها كُتِبَتْ على جـــانبي الطريق كلوحاتِ إرشادٍ مرورية ... وسط ذلك الظلام المحـــيط والذي انسكب فجأة من ثقب في السّماء منذ وقتٍ ليس ببعيـــدٍ ، وفي جوفِ الصمت الرّابض داخل السيّارة حتى من صوت الـــسائق الذي توقّف عن الغناء بعد حلولِ الظّلام كأنه لم يَعُدْ يستطعُ رؤيـــة قصيدته المتناثرة على الطريق ، كان هناك ضوء أبيض بجوارِه .. انتبه أن ذلك لم يكن غير وجهها المستدير الصغير ،اندهش لِلمعـــان عينيها في وسط الظلام ، كأنها مدينة مستقلة عن كلِّ شـــئ ذاتيّـــة الإضاءة ، أدرك أنه انعكاس لتلك النقاط المضيئة الـــصغيرة الـــتي بدأت تتبدَى في الأفق في اتخاذ السيّارة لوضعٍ جديدٍ هـــابط بعـــد صعود استمرّ لساعات كأنها تَنزِلُ داخل فوهة بُركانيّـــة ، أخـــذت السيّارة وقتاً ليس قصيراً حتى بدأت تَتكشفُ شيئاً فشيئاً معالم القرية الصغيرة المستكينة وراء قمة جبليّة ، أعمدةُ إنارة نظمتها بلدية القرية وسط شوارع مُتقاطعة كثيرة سوف تُنْشِئُ لها البلدية قرية فيما بعد وبيوت تُعَدُ على أصابع اليد ذات طوابق أوليّة لا تَمُتُّ لـــشوارع

القرية المضاءة بصلةٍ ، بل تنكفِي على نفسها خَجلةً خَائفةً في جوف الظلام ومحلات بقالة مُتناثرة هُنا وهُناك فارغة رفوفها ، وصحراء منبسطة ، إذ تبدو القرية الكامنة وراء القمة أنها المدخل الوحيد إلى صحراء شاسعة ، يستعجبُ بين نفسه ماذا يفعلُ هــو وعروســه وراء قمة جبليّة على بعدِ يقترب من ألفي كيلومتراً من بيتِه ، تذكّر أنه منذ ساعاتٍ تُعَدُ كان يَجلسُ معها على ذلك الكرسي الأسمنتِــي أمام فرع النيل تحت شجرة الجهنميّة الممتدة على طول الكورنيش تساقط عليهم أزهاراً حمراء ، عندما نظر إليها ووجد على وجههـــا تلك النظرة المغايرة التي قرأها على ضَوء القرية الخافت ، شعر أنه لم يَصل لذلك المنفَى الصحراوي خلف الجبال بل وصل أخيراً لمدينة من مُدن الأساطير ذات الأسوار الفضيّة وأبوابها الذهبيّة ومبانيها النُحاسيّة و ها هو صوتُ الطيّار يُبارك سلامة الوصول ويتمنَى له إقامة سعيدة في مدينة النّحاس ، انتبه لسائق الشاحنة يخاطبه ، عنـــدما توقفـــت السيّارة أمام البيت بدا له أن مصباح الإنارة الذي تركه مُضاء قبل سفره قد احترقَ فقد ظَهرَ البيت غارقاً في ظلام حالكٍ اكتسبه مـــن ظلمةِ الصحراء المنبسطة أمام بيته متخطيّة الأفق كأنه يَنظر لبحـــرٍ عميقٍ في جوفِ الليل المظلم بسوادِه الحالك ، لحظتها وبينما كـــان واقفاً يتأمَّلُ البيت وعروسه بجانبه تتلفّتُ حولها في فضول ، في تلـــك اللحظة انتبه إلى أن السبب الذي من أجله تُهاجمـــه زوابـــع الهـــواء بشراسة دون غيره من دور القرية ربما؛ لأن بيته هـــو أوَّل بيـــت في

مواجهة الصحراء في الجهة الشرقيّة من القرية بل هو وكما يبدو لــه الحاجز الفُولاذِي الذي يصدُّ المارد الصحراوي عن دور القرية كلّها، وربما بنوه شاهقاً كبيراً كسورِ الصين العظيم لهذا السبب ولم يُخبره أحدٌ بذلك عندما جاء لاستئجارِه ..انتبه ليدها تَضْغَطُ بِخفةٍ على ذراعِه تدعوه للدخول كأنها عاشت في هذا البيت قبل أن يعيشَ فيه وابتسامتها الملائكيّة تُداعب بها فؤاده وتلعب به ككرة مطاطيّــة ، و صوت السائق الذي لم يكن غير حارس المكان الذي يعمل فيه ، يهنئه مرة أخرى بسلامة الوصول وينطلق بالشاحنة مُختفياً خلف بيت من بيوت القرية دون تجاوزه ولأوّل مرة منذ أن عَمِلَ في هذا المكان تبدأ قطرات المطر في التساقط و نسمات هواء غير مألوفة أخذت تداعب وجهيهما تُحرّكُ خُصلة شعرها التي ارتمت أكثر علــى جبهتــها ، تذكرهما في نفس الوقت بتلك النّسمات التي كان يستمتعان بها منذ ساعات على كورنيش النيل فيبتسمان متفائلين ..يشعر أنه يريد أن يحتوي جسدها الرشيق بين ذراعيه ..تتزايدُ قطرات المطر ، يَحملُ الحقائب وتساعده فيها ويَختفِيَا معاً داخل البيت ، بدا البيت بجدرانه المطليّة بالجير وأعمدة سقفه الخشبيّة وأرضه الأسمنتيّة القاسِية بموقعه في مدخل الصحراء غير متناسبٍ مع تلك الأقدام النّاعمــة التي بدأت تَخطو عليه متأنية ورغم تواضع البيت إلّا أنــه شــعر بنفسه كأمير في قصره بإحدى القِصص الخياليّة عندما رآها تــرقصُ وتدور حول نفسها وسط مفروشات البيت المتواضعة فترتفع العباءة

السوداء لِتَكْشفَ عن سيقان بيضاء ناعمة كأنها بِلْقِيس أو عنــدما أخذتْ تقفز فرحاً في رشاقة متنقلة من غرفة إلى أخرى مجتازة ذلك الممر الطويل الرابط بين الحجرات وتحت تلك الإنارة المنخفضة غــير المتكافئة مع سعةِ البيت ، نظر إليها ممتناً يريدُ أن يشكرها عمّا في داخله ، جلسَ على الفَرْشِ الأرضي المنتظم بغرفة المعيشة ، جلست بجواره مبتسمة ٠٠عينيها لا تفارق عينه كأنها تُلقِي عليــه تَعويــذة سحريّة من نوع ما ٠٠ تخبره بنظراتها أنه ليس شخصاً عادياً كمــا تلك الأشيّاء من حولهما ليست أشياء عادية يشعر بقلبه يتحرّكُ من مكانه مُغادراً ، يقفز عبر قضبانه الصّدريّة ليكونَ سَجيناً مع قلبٍ آخر داخل صدرها الصغير ، تَبتسمُ عندما تَكْتَشفُ أن قلبه وقع في الأَسْرِ، تُبقي عليه سَجيناً لأجل غير مسمى ، يَحتضنها بذراعيه ، تختفــي بجسمها الصغير داخل جسده ، يرتفعُ صوت دقات المطــر علــى السقف الخشبي ، يشعر أن زوابع الهواء لن تهاجم بيته هذا العام ٠

لُغْزٌ طرحتْه الجدةُ ثُمَّ مَاتَتْ

" توأم من الإناث بهيتان الطلعة ذات وحمتين صغيرتين بجانب الفم.. إحداهما طيبة والأخرى شريرة " .. هكذا سمعتْ جدتَها تُحدِّثُ أمها بينما كان فنجان القهوة يدورُ بين أصابعها .. عندها دخلت عليهما وصرخت: "أنا الأخت الطيبة والثانية هي الشريرة" • • جذبتها جدتُها من أذنيها وقرصَت عليها وهي تبتسمُ .. قالت لها: هل كنت تتنصتين علينا يا شريرة ؟!

كانت طفلة في الثامنةِ ... رغم ذلك فَهِمتْ ما كانا يقولانه •

ـــ لسنوات طوال ظَلتْ تنظر في المرآة .. تتأمَلُ نفسها وهي تَكْبرُ، وتنظر لأختها .. تتوقع أن تظهر علامة على وجهها أو جسدها تكشف عن أنها هي الشريرة ، بينما تُحَمْلِقُ بأختها في نفس الوقت وتَبْحَثُ عن العلامة .. غير أنهما نسختان متطابقتان لا يختلفان في شيء .. عندما نَضجَتْ قليلاً تذكرت ما كانت تفعله فَضحكت من أجل ذلك • • • داخلُها صارت مُتأكدة أن العلامةَ توجد في الدّاخل لا في الْخارج ... ولكن ليس بِداخلِها هي ، فهي الأختُ التي طالما تَعرّضت لأذى أختها منذ كانت صغيرة ... وهي الأختُ التي تسْطُو الأخرى على لعبها وتَكسرها وتَرتدِي ثيابها وتُمزّقُها ، وهي المطيعةُ لأمها ولأوامرها والأخرى هي التي أمرضتها ، وهي المتفوقةُ في دروسِها والثانية هي المهملة ، كما أنها ليست خبيثة أو كما ادّعت

أختها بارعة في إحداث الوقيعة بينها وبين أمها أو بينها وبين صديقاتها... غير أنها دائماً تذكرُ الحقيقة .. لا تريدُها أختها أن تذكرَ الحقيقة .. تعلمُ أنها في اللحظة التي ستكذبُ فيها ستُصبِحُ هي الشّريرةُ ... وتعلم أيضاً أن الجدة لو كانت على قيّد الحياة كانت ستُوضحُ كلامها .. ستُخبرُها عن نفسها .. ولكن الجدة مَاتَتْ ومات لُغْزُها معها •

ــ لا زالت تَذكرُ كلام الجدة كأنه بالأمس " إحداهما طيبة والأخرى شريرة " .. لدقائق طويلة كانت مُستلقية تُحدّقُ في سقف الحجرة بينما تُفكر في ذلك الأمر وتُحاولُ أن تَجدَ إجابة لِلغُز جدتها.. تَزْفُرُ دخان سيجارتِها ــ المغروسة بين أصابعها ــ على هيئة دوائر حلزونيّة بيضاء لا تَلبثُ أن تَزولَ .. عندما أنزلت عينيها توقفَتْ على ملابسها الداخليّة المتناثرة والملقاة بإهمالٍ حول الفِراش وعلى الصدر العاري كثيف الشّعر النائم في استكانةٍ بجوارِها .. عند التَّأمُّلِ فيه أكثر تبيَّنَ لها أنه يَحملُ نفس ملامح زوج أختها .. وقتها فقط شعرت بأنها عثرت على إجابة وافية للغز الجدة •

(مَعَارِكُ)

ذَاكِرَةُ الْمَوْت

-١-

لَعْبةُ الإِخْفاءِ

سأتكلّمُ عن ذلك الشيء الذي ندعوه الموت ، يَتحرّك بيننا دون أن نشعرَ به ، يَرانا ولا نَراه ، يَضْحكُ من انشغالنا الغريب بِالدُّنيا ، يكاد أن يصيحَ بنا بِعُلُوٍّ صوت ماذا تفعلون ؟! .. الباقي من الزمن ساعة .. "افيقوا" ولكنه مكلّف أن لا يعلن الغيب لمخلوقٍ كان .. في وقت من الأوقات لم أكن أنتبه إليه ، أشعر أنه لن يقتربَ مني أو لعزيز لديّ مادمت لم أفعل شيئاً ، حيث كان الاعتقادُ الغالب عندِي أن من يصيبهم ذلك الشيء الرهيب الذي ندعوه الموت قد أخطئوا في شيء ما ،أو فعلوا شيئاً يُخْفُونه عن النّاس؛لذلك كان التصرّفُ أن أبتعدَ عنهم كمريضٍ مصاب بداءِ الجرب خَوفاً من الإصابة ، أستمع يومياً لإيقاع الميكروفونات المحيطَة بي والْمُعلّقة على مآذن المساجد تُعْلِنُ عن مَوتى منْ حولي ، أسدّ أذني ، كثيرة كطوابير الخبز ، أحياناً أشعر أن النّاس هم من يتدافعون إليه ضِيقاً من الحياة وأحياناً أعتقدُ أن ملكَ الموت يقومُ باختيارِه على حسبِ الحي أو المنطقة أو وفق تصنيف ما حسابي غير معلومٍ لأحدٍ ، عندما يكونُ الأمرُ في شارع قريب مني أدع اللهَ أن لا ينتبه إليّ أو لأحد أقربائي ، أشعرُ به

ينظر إليّ بطرفِ عينٍ مُغمضاً مُضيّقاً بين جفنيه ، يقول لي سأتركك وعائلتك هذه المرة ، في لحظة معينة شعرت أنه قد اجتاز خطاً أحمر واقتربَ مني ، كان ذلك يوم أخذ مني أقرب أصدقائي .. اختفاء .. هذا ما يُطلق على ذلك الأمر ، ليس مُهماً كيف مات ؟ ولكن المهم تلك الخدعة التي يُمارسُها الموت ، يُفرْقِعُ بأصابعه كساحرٍ مُحترفٍ.. يَختفِي أشخاص ، أنت تراهم يَمشون بين يديك ، يضحكون ، يلقون النّكات ، تُشاركهم حياتُهم ثُمَّ فجأة يختفُون كماء قد تَبخّرَ ، وتستمرُ الحياة في إيقاعها الحزين وكأن ذلك الكائن الذي اختفَى لم يَلمسْ تلك الأشياء أو يَمش على تلك الأرض التي نَسيرُ عليها مطمئنين ، لم أخف من الموت يوماً على نفسِي فذلك ليس مُؤلما عندي بقدر ذلك الشعور الذي يُولّده اختفاء حبيب أو صديق .. يترك ذلك في عقلي أصداء حزينة تُحفر في الذّاكرة .. لم أنس ميتاً قط ، يُحيطون بي في عقلِي بشكلٍ جُنوني ، القريب والبعيد عني ، حتى ذلك الرجلُ الذي ألقَي عليَّ التحيّة منذ عشرين عاماً أثناء مروره من أمامي ، لا أعرفه ولكنني لازلت أذكرُ تلك المرة الوحيدة التي ألقَى فيها السّلام ثم لم أره بعد ذلك ، هل كان يعلم عندما ألقى عليّ التحية أنه سيختفِي من على ظَهر البسيطة إلى الأبد ؟! أو ذلك الرجل الجالس في الشُّرفة يتصفّحُ الجرائد منذ عمر مضى ، لقد مات ولكنه لازال جالساً يقرأ الجريدة داخل عقلِي ، أو ذلك الجار العزيز صاحب كشك الْولاعات على ناصيةِ شارعي الفرعي .. لازلتُ عندما أدخل الشّارع بسيارتِي الصغيرة السّوداء أرفعُ يدي بالتحيّة تِجاه الكشك مُبتسماً ثم أصدم بذلك الوجه الجديد الجالس خلف الفاترينة الزُّجاجيّة لبيعِ الحلْوَى

والمشروبات المثلجة ، أتذكر أن عمَّ مجدي بائع الولاعات انضمَ للائحةِ من اختفوا من حياتي رغم أنه لازال جالساً على هيئتِه يُعَبئ الولاعات من عبواتٍ الغاز الصغيرة ، أناسٌ آخرون لا تَغيبُ وجوههم لازلت أذكر منهم أصدقاء أبي الذين كنت أجلس بجوارِهم على القهوة منذ زمن يُدَلْلُونني ويتسابقون في إحضار الحلوى والبارد لي ، يُقبلونني على خدي بشوارهم العملاقة ورائحة الشيشة تَفوحُ من أفواههم وأنوفهم ويبتسمون لي فتظهرُ أسنانُهم المائلة إلى الاصفرار من شرب الدخان ، لازلت أُحِسُّ على خدِي بنغزاتِ شوارِبهم ، ولازلت أشعر بطعم الحلْوى في فمِي ، لم يبق منهم غير القليل كأن وباءً قد أصابهم فاختفوا فجأة أتذكر أسماءً كثيرة كنت أسمعها قريبة من أذني ، حذفت الآن من قاموس لغتي ، لم تعد أسماء مستخدمة الآن ، ولكنني أتذكر وجوههم ، حركاهم ، رمش عيونهم، آثار أقدام أحذيتهم ، الشّرفات بجدرانِها التي كانوا يتحرّكون أو يجلسون في محيطها ، بيوهم كآثار فرعونية لا تتغيّر ، تبدو كأنها سَتصمدُ لسبعةِ آلاف عام ، كُلُّ شيء لازال كما هو مُرتسمًا داخل عقلِي ، أمتلكُ ذاكرة فوتوغرافيّة، يقولون: إن الإنسان ينسى ، الآن عرفت أن تلك المقولة أكذوبة والآن أنا أواصل الحياة وأستمرّ ولكنني أعاني من إعاقة صغيرة وهي أنني لا أنسى .

-٢-

ظُهُورٌ مُفاجِيء

وإذا كان الموتُ يُمارس لعبة الإخفاء فإن له لعبًا أخرى يعرضها عليّ وهي إظهار ما تَمّ إخفاؤه ، ذات مرة عندما كنت في إحدى السيّارات الأجرة – ميني باص – متخذاً طريقِي من رمسيس لقضاء مصلحة ما ، كُنت جالساً بجوار الشبّاك في انتظار تحميل الميني باص بالرّكاب ، ركبت تلك السيدة في أواخر العقد الخامس من عمرها ، بدا أنها تَعْرِفُ السائق والكمسري اللذان لم يكونا قد تعدّيا منتصف العقد الثالث ، كانت السيّارةُ قد اِمتلأتْ فَجَلسَتْ تلك السيّدة مُرتكزة على الحاجز الحديدِي المجاور للسائق مواجهة للرّكاب ، كانت عندما تَتَحدثُ تَميلُ برأسِها ناحية السائق ثُمّ تارة تَلْتَفتُ إلى مُحصل الأجرة ، كانت تَمزح معهم وتَسأل عن أمهما ، تَنتقلُ من موضوعٍ لآخر ، عندما تأملتُها جيداً تَسمّرت عيناي عليها مَذهولاً ، رغم أنها لاحظت ذلك إلّا أنها استمرّت في الحديثِ والمزاحِ مع السائق بتلك الطريقة الشّعبيّة التي أعرفها جيداً أو سمعتها قبل ذلك ، كانت نسخة مُطابقة من عمتِي التي تُوفّيتْ على إحدى أسرّة مستشفى السادس من أكتوبر ، طريقةُ كلامها .. لهجتها ، خدودها

التي يبدو من معالمها أنها كانت مُمتلئة ثُمَّ صفدها المرض ، الأسنان المتساقِطُ معظمها كدليلِ على الإصابة بِمرض السّكر ، العينان المغلقتان قليلاً من الإرهاق ، فلم تَكُن تتوقفُ عن الحركة رغم تعبِها، لازلّتُ أذكر ذلك البورتيريه الذي رسمته لها عندما كانت في منتصف العقد الرابع من عمرها ، الخدود المتورّدة الشعر القصير وقد صَبَغَتْ بعض خيوطِه باللون الأصفر ، الابتسامةُ العريضة على أسنانها ناصعة البياض ، ذلك الوَهَجِ الذي أضافتُه بعض لمسات من أدوات التجميل ، كان البورتيريه بالقلم الجرانيتي إلّا أنه أظهر جمالها ، قالت لي: " أنت شاطر ، هل يُعقلُ أن أكونَ بهذا الجمال ؟"

لازالتُ الجملة تَرَنُّ في أُذني ، لكم أحببت زيارتها ، تأتي لمدينتِي – شبين الكوم – في المناسبات المختلفة لِترَى أحباءها وأقرباءها ، أنتظر قدومها بفارغ الصبر لِنَتخطفَ أطراف الأحاديثِ من بعضنا البعض ، أراها قادمة من بعيد فأنزل سريعاً لاستقبالها ، الآن عندما أقف في تلك الشُّرفة تكون عيناي مُعلّقة على أطراف الشّارع في انّتظار أحد قادم ولكن القادم لن يأتِي فقد سَبقَ أن اختفَى منذ أعوام تاركاً مكاناً خالياً على أرضيّة الشّارع الذي خَطّتْ بقدميها فوقه ... شفتاها لازالتا تَتحدّثان إلى السائق ، يتوقفُ الأتوبيس مُصدرًا صفيراً مُزعجاً يُخرجُني من أفكاري ، تُخاطِبُ السائق بِمزاحٍ يَدّلُ على أنها تعرفه أو تركبُ معه كلّ يوم ، تدعوه " حمكشه" تطلبُ منه بتلك اللهجة الجيزاويّة وعلى الأخصِّ حي العمرانيّة أن يُسلّمَ على أمِه تَلتفتُ بفضولٍ وهي تَخطو على سلم الميني باص نحو تلك العينين الّلتين لم تَكفّا عن متابعتِها ، تَختفِي في اتجاه شارع عرضِي .. على ناصيةِ

الشّارع كان هُناك سهمٌ ولافتة كُتِبَ عليها "مستشفى السادس من أكتوبر"! عينَاي تُحاولان أن ترصدَها مع انطلاقِ السيّارة ، ولكنها اِختفَتْ كعمتِي التي اِختفَتْ منذ سنين في نفسِ ذلك الشّارع ونفس ذلك الاتجاه ، إنهم قد يَظهرون في أجساد مُشابهةٍ وأرواح مقاربة ربما ليرسلونَ لنا نحن الأحياء رسالة حب ولكنّهم لا يَلبثون أنْ يختفوا ، أنا فقط أراقبهم وأراقبه ... أشعر به - الموت - يُغمضُ جَفنيه قليلاً....يَنظرُ إليّ بطرفِ عينه كالمعتادِ ، يَنصرفُ ليواصلَ ممارسة ألعابه المفضلة ، ذات مرة قالت لي زوجتي أريد أن أموت قبلك ، ضحكت فجميع الناس يموتون قَبلي ، وذات مرة قابلت صديق لي وسلّمْتُ عليه ، سألتُه عن أخباره ، قال : بخير ، سألته عن آخر مرة تقابلنا فيها ، حسبها في عقله ، تذكر ، قال : خمسة عشرة عاماً ، تَعجبتُ من مرور كلّ ذلك الوقت ، ودّعته ، قلت له أراك قريباً ، مرّت عشرة أعوام .. لم أره قط .. لا أعلم عنه شيئاً من وقتِها ، ما أدركته أنه قد انضم إلى لائحة من مارس معهم الموت لعبة الإخفاء ، إنهم يتزاحمون داخل عقلي ، لا يفسحون مجالًا لغيرِهم ممن هم قادمون، كأنه اِعتصامٌ أبدي لِلْموتَى داخلِ العقلِ ، يصيبُني ذلك بصداعٍ نِصفي مُستديم ، لا أعلم ماذا يَحدثُ و لماذا لا أنضمُ إليهم ، أشعرُ به الآن يَترقَّبني ، أبتسمُ وأبتهجُ ، سوف أرتاحُ ، يُغلق جفنيه نصف إغلاقٍ كالمعتادِ ، يَنصرفُ عني ويتركنِي ، شيء واحد صِرتُ أدركه الآن ، وهو "أنني لست إلّا ذاكرة الموت" .

مَعرَكةُ فِي الْجوارِ

اقتربت تلك النَّمْلَةُ من فِئة النَّمَل الصغير السريع الذي يعيشُ في الْجُحْر الشّرقي من الغرفة القبليّة من تلك النَّمْلةِ الكبيرة العملاقة التي تنتمِي إلى فصيلة النّمْل أصحاب الأقدام الثقيلة والذي يعيش في الركن الغربي من الغرفة والتي بدا عليها الإجهاد ، وبدا أنها تَعْرُجُ إثر إصابة دَهسٍ أو حادثِ سَيرٍ ؛ اقتربتْ منها دون أن تشْعرَ من خلفها ، فكّرتْ في المجد الذي ستحظى به إذا استطاعت أسر ذلك العملاق المتحرّك أمامها ، يَدبُ بأقدامِه فَيُحْدِثُ ذلك الضجيجُ المزعج وتُصْدِرُ تلك الرائحة المميّزة من جروحِها ، اقتربتْ منها في حذر شديد ، وفجأة انقضّت كالبرغوث على مُؤخرة بطنها ونهشتها نَهشة كبيرة ارتفع على أثرها صراخُ سَمِعَهُ النّمْلُ في أفق الغرفة من شرقها لغربِها حتى خرجَ من جحورِه يُحاول أن يستشّفّ ما يَحدثُ ، أعقبت ما فعلته بنهشةٍ أخرى في ساقها الجريحة ، انتبهت النّملة العملاقة لهول الهجوم الذي تتعرّض له وهي مُصابة ، أرسلت رسالة استغاثة بقرونِ استشعارها لعلّ نَملة قريبة تَسمعها ، حاولتْ أن تدافعَ عن نفسِها بأقصى ما عندها حتى يصلَ إليها الدعم ، التفَتَتْ يَميناً ويساراً تَبحثُ عن مهاجمتِها ، فاجأها مرة أخرى بقرصةٍ عنيفة في مؤخرة رأسها ، لم تَشعر إلّا والغرفة تَدورُ من حولها ثم تغيب عن الوعي ،

وبينما كانت النّملة الصغيرة تتجهُ إلى الجحر الشرقي من الغرفة تَحملُ فوق ظهرها صيدها الثّمين وتُدَنْدِنُ بأغانٍ حماسيّة من فرحة النّصر مُتخيلة الاستقبال الحافل الذي ستقابلُ به من أخواتِها في الجحر؛ كان هناك طفلٌ صغير يتابعُ المعركة ويرمقها بعينيه في تعجب، لم تَشعر به إلّا عندما بدأ يضايقُها ، كان ذلك عندما التقط النّمْلَة الكبيرة من فوق ظَهْرِها ورماها بعيداً عنها ، في البداية شَعُرَتْ بالفزع من ضَخَامةِ حجمِه •• وكانت في طريقها لِلْهروبِ إلى الْجُحر الشّرقِي ، ولكنّها فكّرت كيف تتخلَى عن مجدها ، نظرت إلى النّملة الكبيرة حيث ألقى بها الطفلُ بعيداً عنها ، حامَت حول المكان ببطء حتى لا ينتبه إليها الطفلُ الصغير مرة أخرى وفجأة هَجَمَتْ على النّمَلةِ المغيّبة عن الوعَي والتقطتها ورفعتها مرة أخرى فوق ظهرِها ، ولكنّها فُوجِئَتْ بِالطفلِ الصّغير يلتقطُ صيدُها مرةً أخرى ويرميها بعيداً عنها ، ثم ترتفعُ ضحكاتُه لِتَصمَّ آذاها ، نظرت لِلنّملة الكبيرة التي بعدت عنها مرة أخرى وإلى الطفل الذي لازال يَضحكُ بسذاجةٍ••• اقتربت منه في ضَيقٍ زحفت ببطء تحت ساقيه المنثنيتين إلى الخلف على الأرض ، أَطبَقَتْ بفكيّها من الغيظِ على ركبته ، قام الطفلُ فزعاً وقد تَمْلّكَتُه حالةً من البُكاء الهستيري ، تَنَفّسَتْ النّملة الصّعداء وعاودتْ حملُ النّملة العملاقة فوق ظهرها وعادت للدّندنةِ مرة أخرى بأناشيد النّصر ، الكثيرون من إخوالها كانوا ينتظرونها بالتهليل أمام الجحر بين معجب ومُصفّق ••تقدمت الأيّادي تساعد النّملة الصغيرة في إنزالِ الفريسة وتقطيعها وتخزينها في غرفة التّخزين، وبدأت النّملة تَحكي ما حدث وتُبالغ في وصف شجاعتِها حتى بَانَتْ

أمام إخوانها كصَرْصُورٍ كبيرٍ مُفترسٍ ، حتى وَصَلَتْ في حَكْيِّها إلى قصة الطفل الصغير الذي هاجمته حينئذٍ ارتفع صوتُ قائد النّمل قائلاً في فزعٍ: مَاذا فعلَتْ ؟! هاجمت إنساناً ؟!ء سيّطر الوجومُ على جموع النّمل مستشعرين الخطر ، عقد قائدُ النّمل ما بين قرني استشعاره وبدأ يتحدّثُ في غضبٍ قال:"نعيش في جُحرنا هذا منذ عشرات الشهور لم نُهاجم أحداً ولا قَام أحدٌ بمهاجماتِنا ، تَعايشٌ تام لم يَحْدُثْ في أيِّ غُرفة أو عمارةِ من البنايّات العملاقة المحيطة بنا وجئت أنت بفعلتِك المستهترة لِتُهدِي كُلّ ما بناه أجدادنا في الشهور السابقة". ثم صمت القائد وهرش بإحدى قرنيه في رأسه وسط صمت الجموع ، وفجأة تَحدّث بنبرةٍ قلقة مُحذرة قال: "من الآن وحتى إشعار آخر سوف يكون هناك حظر تجوال على الأراضي المنبسطة للغرفة القبليّة و ليحفظنا الله من البشر ويحفظ جحورنا الشرقيّة" ، ولكنه عندما انتهَى من كلامه كان هناك ضجيج من نوع معروف يحفظون صداه بدأ يقترب في خطوات منتظمة.

فجأة دخل حرس الجحر إلى القائد مُعلّنين أن صفوفًا من النّمل العملاق خَرجت من الجحر الغربي في أقصى الغرفة وهي في طريقِها إلى الجحر الشرقي – كانت النّمْلة العملاقة قد أرسلَتْ إشارات استغاثة قبل أن تغيبَ عن الوعي وتدخلَ في غَيْبوبةٍ – ارتفعت الأصوات إنها الحرب الكُبرى ، لا يُمكن أن نتركهم يَصلون لحدودنا سيأكلوننا داخل بيوتنا ، صرخ قائد النّمل فلتخرج جيوشنا لملاقاهم في منتصف الغرفة حيث بقع الحلوى وفتافيت المكسرات ولنحتلّها قبل وصولِهم ، امتلأت أرضُ الغُرفة بآلاف النّملِ تَجمّعَتْ وتقاتلت

حول منابع الحلوى واحتدّت المعركة وصمدَ جنودُ النّمل الصغير بالرغم من حجمه دفاعاً من أجل البقاء ، وبينما المعركة في حدّتِها نزل رذاذٌ قاتلٌ من أعلى لِيغُطِي كُلّ أرض الغرفة ولِيكْتسّحَ برائحتِه المميتة الجحور الشرقيّة والجحور الغربيّة ، تَناثرت على إثره آلاف الجثث يَميناً ويساراً وملأتْ المساحات الشّاسعة من البلاط في كُلّ أرجاء الغرفة ، وارتفع صوتُ ودود في الغرفة" انتهى يا صغيري الحبّوب ، لن يقرصك النّمل بعد الآن ، لقد رَشَّشته ، فقط دعنِي أكنس الغرفة ثم تواصل اللعب فيها" .

الطّريقُ إلى فَرْغل

على الطريق التُّرابي الممهّد في مدخل القرية بجوار الترعةِ تجمّعوا كَكُلِّ يوم وقت العصريّة ، أطراف ثيابهم المتسخة والمزّركشة بلون الطين علّقوها على أسنانِهم ، تفرّقوا يميناً وشمالاً ، اختبئوا فوق الأشجار وخلف عشش القشّ المنتصبة المتهاوية بأطرافِ الحقول وأسفل ضفة الترعة الطينيّة حيث الروائح النتنة ، يلعبون ويمرحون عسكر وحرامي وكهرب والغُمّيضة وسمكة في الوسط ، يلتقطون السّمكَ من الترعة والعصافير من أعلى الأشجار ... قال لهم رافعاً صوته ليسمعوه:

" أريد اللعب معكم " ردّ أحدهم عليه: "إن سبقت فرغل تلعب معنا" ، تَحوّل بصره نحو فرغل ، ثيابه الرّثّة ... شعره الأغبر ... قدميه الحافيتين ... تفحّصه فرغل هو الآخر ، بدا في نظراته شيء من الاحتقار ، سرعان ما أخفاه ، صوته رجولي قليلاً ، يبدو أكبرهم ، قال:

" لا نُدخل معنا غرباء .. ولكن هيّا سابقني إنْ فُزت تلعب معنا"... فاجأه بالجري ، انطلق بأقصى عزمه ، بدا الأمر كسباق على حياة أو موت ، سيقانه كسيقان فرس النّبي تتخذ زوايا حادة كلما ارتفعت الرُّكبتان لأعلى تعود وتنفرج ، تُخلّفُ وراءها قفزة خارقة "فرغل .. فرغل .. فرغل " يُشجعونه ، حاول اللحاق به ،

خذلته قدماه ، تخطّاه بمسافات ، عاد مُفتخراً بنفسه ، هلّلوا له "فرغل .. فرغل .. فرغل " انتفخ كالدِّيك الرومي ، رمقه بنظراتٍ مُتعالية ، قال له: " لقد خسرت" ، انطلق ... انطلقوا خلفه ، واصلوا اللعب ، راقبهم أثناء جلوسِه على جذع الشّجرة المقطوع المحاذِي لشطِ الترعة ، ضمَّ ركبتيه لذقنه ، بدا كغصن نبت فجأة في الجذع الميّت ، دفع بيده حجرة صغيرة في الماء ، كوّنت دوائر من قــاذورات ، جلسوا على مَقْربةٍ منه ، كانوا يَلهثون من التعب ، وجوههم حمراء لامعة كسربِ سمك مُرْجان ضلّ طريقه واستقرّ جواره ، لم يُعِيّروه اهتماماً ، نظر لفرغل ، اعتبره المشكلة ، لو أثار اهتمامه لَلَفت انتباههم ، كلّمَه أحدهم ، كأنه لم يكن موجوداً وفجــأة تراءى لهم " سنشركك معنا في اللعب إن تَمكّنتَ أن تّصيبَ بالنّبلة إحدى تلك العصافير على الغصن" ... أضاف "فرغل يفعلُ ذَلك دائماً" ... تأمّل شجرة التين البنغالي بأغصانها المرتفعــة ، اختبار آخر من اختباراتِهم ، تناولَ النّبلة منهم ، أطلقها ... ارتفعت الحصاة عَالياً لِتطولَ الأغصان ، تَحرّكتْ عيونُهم معها ، سقطت بعيدة ، العصــافير لاتزال واقفــة ، ضَحَك فرغل ، ضحكوا وراءه التقط حصــاة أخرى من الأرض ، ثبتها بها ، جرّب مرة أخرى ، لم تُفْلــح مُحاولته ، التقطهــا فرغل منه بخفةٍ ، نظر إليه ساخــراً ، ثبّت الحصاة في النّبلــة ، باعد بين يديه أفلتهــا من بين أصابعه ، انطلقت صوب الهدف ، سقط العصفور بينهم ، عــاود النّظر إليه متباهياً ردّد كلمته له " لقد خسرت " هللوا له " فرغل..

فرغل .. فرغل" خبّطوا بأيديهــم دلالة الفرحــة ، يتمنى أن يُخبّــط رأس فرغل بصخــرة.

الوقت لازال عَصراً ، غير أنه في طريقِه لِلْغُروب ، حرارةُ الجو تزدادُ كلّما اقترب المساء ، لفحاتٌ حارة تَصْفَحُ الوجوه ، خَليطٌ من تراب وعرق غلّف الأجساد ، رائحة أجسامهم عَفنة من اللعب ، لازال يريدُ اللعب معهم ، لن يلعبَ معهم إلّا إذا رضي عنه فرغل ، يُدركُ ذلك ... يوجّه كلامه لفرغل ، يعرض عليه إحضار قِطعٍ من الثّلج من ثلاجة خالــه البقال ليلعبوا بها ، سُتلطّف الجو قليلاً ، نظر إليه مُحْدقاً دون أن يُعلّق ، تَحوّلت نظرته لنظــرة استهزاء ، خلع ثيابه ، فعلوا مثله ، قفز في الترعة فقفزوا خلفه ، سراويلهم المترهلة التصقت على أفخاذهم ، أصبحت شفافة عند ابتلالهــا ، مُؤخراتهم أكثر وضوحاً من وجوههم ، لا يُعِيّرون هذا اهتماماً ، تعودوا على فعل ذلك ، يُناديه فرغل:" تريد اللعب معنا ، هيّا اخلع تلك الملابس الفاخرة واسبح معنا في الترعة" ... تردّد في الإجابة عليه ، يصرخون فرحاً بالماء ، يضربون سطح الماء بأيديهم ، تتحرّك القذارة الراكدة من حولهم ، نهاه خاله عن نزول الترعة ، قال له: "مليئة بالدّيدان" عاود فرغل مُخاطبته ، رفع صوته ليسمعه " اسمع يا ... اذهب واحضر ذلك الثلج من دُكان خالك ... هيّا أسرع" ، يُكلّم نفسه ، ها هي الفُرصة ليشتركَ معهم في المرح ، يشعر أنه لازال في السّباق مع فرغل ، سيسبقه هذه المرة ، لن يستسلمَ أمامه. انطلق صوب القرية ، سمع أصوات ضحكاتهم ، تخافتت كلما ازداد ابتعاداً ، لا يعرِفُ عمّا يضحكون ، فاتته إحدى فكاهاتهم.

صندوقٌ صغير رباعي الجدران مكدّس بالمواد الغذائيّة وأحذية وعدد من فساتين البنات الصغيرة ، هكذا محل خاله ، يبدو كصندوق الدنيا ، وسط الصندوق يجلس خاله •• بجوار الدُّكان تقف في وهن ثلاجة الآيس كريم الصَدِئه ، تُصدرُ ضَجيجاً مُزعجاً ، تبدو كسيّارة تَفقدُ عزمها كلّ قليل ثُمَّ تُعاودُ الحركة ببطء ، يدعو الله أن يكونَ بها ثلجاً ••• يضحك ••• جدرانها أقلّ سُمكاً من قوالب الثّلج المتراكمة ، عندما وضعها في الكيس بدت كغزل البنات ، انطلق عائداً لمدخل القرية حيث الطريق الزراعي ، تَسارعت خُطاه ، تساقط عرقُه بغزارةٍ ، تركه خلفه ، مَنّى نفسه بإرضاء فرغلٍ ، بدا له فرغل كأرذلِ من عَرِفَهم من البشر ، عبرَ جُسوراً ترابيّة ضَيّقة بين مَزارع الذُّرة الصّفراء ، قميصه الحريري التصق بجسدِه ، صار قذراً ، شعر بِحاجتِه إلى الغطس في مياه الترعة ، زاد من سُرعتِه ، خَشي أن ينصهر الثّلج ، إن ابتسمَ فرغل أشركوه في اللعب ، يَخوضُ معركتين في وقت واحد ، إحداهما مع الثّلج والأخرى مع فرغل ، عندما تسلّقوا الضفة التُّرابيّة لِلترعةِ خارجين منها بدوا كجُرْذانٍ مُبللةٍ خَرجت من مخابئها ، تباطأت خطواته توقّفَ أمام فرغل ، مسح بظهر يده ذلك العرق الكثيف المتســاقط منه. سأله فرغل ، بدا عليه أنه غير مصدق أنّه فعل ذلك " هل أتيت بالثلج فعلاً؟" ••• أجابه بتباهي أمام الجميع: " نعم ها هو الثلج " ••• مَدّوا أيديهم داخل الكيس ، لم يُمدّ فرغل يده معهــم ، لم يَجدوا في الكيسِ غير ماء ، ضَحكَ فرغل ، ضحكوا معه ، غمزَ لهم ، علّق: " ألم أقل لكم أنه سيفعلُها" خاطبه فرغل بِاستعلاءٍ :" أيّها الغبي إن الثلج لن يصمدَ

طيلة هذه المسافة وفي هذا الحر الشديد ، ألم يعلموك هذا في مدرستك بالقاهرة؟! وعموماً لقد انتهينا من اللعب اليوم ... سلام ".

انصرف فرغل ، انصرفوا وراءه ، تفرّقوا في جهات مُتعددة في طريقهم لدورِهم تركوه وراءهم ككيس من القاذورات.

كانت الشّمسُ في طريقها لِلغروب ، لونُ ضيائِها اتّخذ شكلاً أكثر حُمرة. صمتٌ رهيب أحاط به ، نَسمات الهواء النادرة توقف تماماً ، ازداد الجو حرارةً ، عَشراتٌ من الذُّباب والبَعوض هاجمته ، حوّطَتْ وجهه وجسده ، شعر بالرغبة في الصراخ.

في اليوم التالي كان يسلك وخاله طريق القرية ، يشقاها لشاطرين متساويين ، حقيبته معه ، اتخذّا معاً الطريق المؤدّى إلى موقف السيّارات ، أجازته عند خاله قد انتهت ، ووقت عودتِه لبيتِه في القاهرة قد آن ، يُواصلان المشي بِخُطاة مُتزنة ، والقريةُ تتحرّك من وراءهما مُبتعدة ... من بعيد بَدَتْ أشجارُها كسور حصن مَنيع لا يستطيعُ أحدٌ اجتيازه.

فرغل وصحبته تَحوّلوا لأطيافِ في الذاكرة ، يتذكر معاركه الخاسرة مع فرغل ، فكرة غريبة تَبادرت لذهنه ، أدرك أنه لم يلعب بالأمس سوى مع فرغل ، سباقُ الْجَري ، صيدُ العصافير ، مُخاطبته له لنزول الترعة ، وتكلّيفه له بإحضار الثلج ، إن فرغل فقط من لعب معه ، يَضحك .. تَنطلقُ السيّارة في طريقِها إلى القاهرة.

طَرِّيقٌ لِلْخُرُوْجِ

نفسُ الأشيّاء كما هي،الكراسي القديمة المصنوعة من الخشب و سعف النّخيل ،المقهى القديم بجدرانه لم تَتَغيّر من وقت أن تركها إلّا ما أحدثه الدُّخان وتراب الزمن عليها ، بجوار الكُرْسِي الجالس عليه كانت نَفسُ الطاولة ذو الأرجل الحديديّة وقُرْصِها الرُّخامي تُغطيّه نفسُ بقع الشاي القديمة وقد عفّ عليها الذُّباب نفسه أو سلالته ، حتى عامل المقهى الكَهل الذي وضع فنجان القهوة بجوارِه مُنذ قليلٍ كان يرتدِي نفس الجلباب الصّيفي المقلم بخطوط زرقاء مُحْتويّة على نفس البقع كأنه قد أضرب عن غسله منذ عشرات السنين ، حتى أنه يعتقد أنه لو كان يَمْلكُ أداة لِفحصِ البَصمات الآن لِعثرَ على بصماتِه على نفس هذه الطّاولة الرُّخاميّة الجالس بجوارها كأن عاصفة زمنيّة قد جَمّدَتْ المكان في انتظار شيء مجهول لم يَحدُثْ بعد ، يسمع طقطقة تروس تتحرّك فوقه ، إنها مظلة حجب الشمس يمددها العامل أمام المقهى وقت الظّهيرة ، رغم أنه منذ عاد من ميلانو لم ير الشّمس تَسطع مرة واحدة ، لا يوجد غير تلك السّحابة الغَامضة من الضباب تحجب من وقتٍ لآخر وجوه البشر العابرة ، دون أن يَتساءَلوا لماذا لا يَنْقَشعُ السّحاب ؟ !!من العبس ما يُفِكرُ فيه أو يَخْطرُ على باله الآن ،فرغم أنه ترك القرية منذ سنين طائلة مُسافراً إلى

إيطاليا إلّا أن أشيّاء كثيرة في القرية لازالت كما هي ، ففي الجهةِ المقابلةِ للقهوة لازال يَرى محل عم علي الذّي يبيعُ الْمِلح والجاز وأكياس المقرمشات كما هو لم يَتَغَيّر به شيء ، و لا يدرِي ما العلاقة الثُّلاثيّة التي تَربط بين هده الأشيّاء ولكنه اعتاد في صغره على شراءها منه ، تُرسله أمه لشراءِ الجاز لِتُشْعِلَ به " الوابور" النُّحاسي الذي تُحافظ عليه وتلمعه بعنايةٍ بعد كُلّ طبخةٍ ثُمَّ تُؤكد عليه عدم نِسيانِ الملح ، ثُمَّ تُكونُ مُكافئته على طاعتها والاستماع لكلامها شراء أكياس المقرمشات المصنوعة من الدقيق مع مكسبات طعم الجبن ، ولم يكن في القرية حَلْوَى أخرى غيرها وعبسًا عندما كان يسيرُ تائهاً مذهولاً متجولاً في شوارع ميلانو حاول تفسير العلاقة بين الاسم كاراتيه الذي كتب على أكياس المقرمشات وبين الدقيق بطعم الجبن ، هل من يأكل من تلك المقرمشات سيتقن فن الكارتيه؟! ، حتى تاقت نفسه للرُّجوع لِعم علي وتذوق تلك المقرمشات ، لا زال عم علي يجلس على كرسيّه وسط المحل الصغير الذي لا يتعدى الثلاثة أمتارٍ واجماً شارداً ثانياً ذراعيه أمام صدره في اِنتظار قدوم زبون لشراء الجاز أو الملح أو طفل صغير لشراء الكاراتيه ، بجواره كانت كارتونه بالفعل تَمْتلِئُ بنفس أكياس الكاراتيه ، يتعجبُ من ذلك مُتسائلاً هل ظَلّتْ الشّركة تُنتجُ نفس هذه الأكياس لثلاثين عاماً دون أن تُغيّر حتى لونها أو اسمها أم أن عم على قد عَثر على بعض منها وسط الكراكيب القديمة القابعة برُكنِ المحل فقررّ أن يبيعَها !! رُغم تلك المدة التي عاشَها في إيطاليا إلّا أنه أبداً لم يَنس تلك القرية التي عاش فيها طفولته ، فبينما كان يَستكْشِفُ ملامح ميلانو الجميلة

المغتسلة ضواحيها مُرتدياً ذلك الجاكت الجلّدِي المبطن من الداخل تبطيناً جيداً مُخبِئاً أنفاسه الباردة في تلفيحتِه الصُّوفيّة كان دائما يتذكّرُ شوارع قريته الصغيرة الضبابيّة ، يَحِنُّ إليها رغم أنه منذ كان صغيراً لم ير الشَّمس تُشْرِقُ عليها أبداً ، دائماً ما كان ذلك الضّباب الغريب يَحوطُ القرية الواقعة فوق تلٍ عَالٍ من كُلّ جهة حتى أخفاها تماما عن الأنظار فلم يعد يعلم بمكانها إلّا أصحابُها ،ولكنه لا ينساها أبداً ، حتى عندما كان نائماً في تلك المرة في حضن كريستينا جميلة الوجه كملاكٍ بريء في غرفتِه الصّغيرة التي شاركته إيجارُها مُناصفةً كان يُفْكِرُ في القريةِ وعلى الأَخَصِّ تلك الفتاة فرح التي كانت ذائعةُ الصّيت ،كانت تَقطنُ الطّابق الذي يليه ، كان يُفكّرُ في تلك اللحظة التي قبّل لأوّل مرة فتاة وكانت تلك الفتاة أفراح ، وكان ذلك ببدروم البيت الْمُمتلئ بالصناديق الخشبيّة القديمة ، يَذْكر ذلك ، لم يفعل شيئاً غير القُبلةِ وهي أكملَتْ البَاقِي ، وكما تَوقع لم تُكن بَكراً ، لِذلك لم يُرض بمَا آلتْ إليه الأمور عندما وجد أمها تدخل عليه بعد تسعةِ شهور غاضبة بينما تَحْمِلُ بين يديها ذلك الغُلام الصّغير قائلة له:" ابنُك" ، وحيثُ أنه في اعتقادِه أن البقاءَ في رَحمِ فتاة لخمس وعشرين ثانية – هو كُلّ ما قضاه معها فقط في البدروم – لا يُمكنُ أن يُسْفرَ عن مَوْلِدِ غُلامٍ فقد ثار وغضِبَ بشدةٍ مُتنَصلاً من ذلك المولود ، وفي رأيه أن ذلك الأمر هي المسئولة عنه فهو لم يفعلْ شيئاً غير القُبْلةِ وتولّت هي أمره ، فقد كان شخصاً عُرِفَ عنه أنه يحافظ على الصلوات ولا يمكنُ أن يفعلَ ذلك إلّا مُضطراً ، وبالرغم من ذلك الاتّصال الذي حدث بعد أعوام من صديق له في القرية يُخبره

عن ذلك الصّبي الصّغير مع فرح والذي يَحْملُ وجهه تماماً كأنه قد استنسخ منه إلّا أنه لم يُغَيّر رأيه ، وكما فَعَل ذلك رغُماً عنه مع أفراح فقد فعلَه غصباً مع كريستينا رفيقته في الغُرفة عندما كان يَشْعرُ بالبردِ الشّديد في تلك الليلة إلى درجة الارتعاد فلم تَجدْ كريستينا ما تُدفئه به سوى جسدها وعندما انتهت وسحبت نفسها من بين أحضانه ، شعر بالغضب الشّديد فقد أوقعته في الحرام على حدّ قولِه وهو ذلك الشّخص الذي يُحافظ على الصلاة ، فرغم أنه كثيراً ما كانت عيناه تَقَعُ على كريستينا وهي تتحرّك في الحجرة بِسروالِها القصير من الحرير النّاعم والذي لم يكن يتعدَى مَنطقة الردفين تَمتدُّ من أسفلِه سيقانها البيضاء الطويلة المتناسقة مع مُؤخرتِها الجميلة وخصرها الرفيع قبل أن تختفِي تحت غطائها الثّقيل كل ليلةٍ مُستعدة ليوم من العمل الشّاق ، رغم ما رآه من كريستينا بطرفِ عينيه المتلصّصة إلّا أنه لم يَخطر على باله قط أن جسده يُمكن أن يلمسَ ذلك الجسد الجميل عارياً بل يتمكنُ من اقتحامِه بعنفٍ كما حَدَثَ في تلك المرة ، فقد كانت العلاقةُ التي بينهما غريبة من نوعٍ ما ، كانت زمالةُ غرفة كأختين وليس كرجلٍ وامرأة ، فَرَضَ ذلك ارتفاع أسعار الإيّجارات في ميلانو ، ثُمَّ نشأت تلك الصّداقة القَائمة على الاحترامِ،حتى نسيّا معاً أنهما رجلٌ وامرأةٌ في حجرة واحدة ، حتى أنها كثيراً ما كانت تَنامُ مُتجاورة معه في فراشِه مُستندة على ذراعِه بينما تَسترسلُ في أحاديثِ ساذجة عن طفولتِها أو عن أبيها وأمها حتى تَسقطَ فِي نومٍ عميق ويسقط معها هو الآخر في النّوم متلاصقين كأختين صغيرتين يَختبئان ببعضهما ، كان غريباً حقاً ما كان بينهما ،

ثُمَّ عندما يستيقظان يَجدان أرجلهما قد تلاحَمت وتَشابَكَتْ دون قَصدٍ وقد أحسَّ كُلٌّ منهما بسُخونةِ جسد الآخر فتقبله على خَده وتخطف شريحةً من الخبز الإفرنجي من ذلك الكيس الذي لا تَخلو منه الثّلاجة أبداً وقطعة من الجبن وكوباً من اللبن تشربه على عجلٍ مشيرةً له بيديها الصغيرتين ومُختفيّة في لحظةٍ وراء الباب تاركةً مكانها في الفِراش تلك الرّائحة لِعطرٍ أوروبي جميل رخيص لكنه مُثيرٌ ، في تلك الليلة التي كان يَرْتَعِدُ فيها من البرد كانت بجوارِه تَسترسلُ في حَديثِها المسائي عمّا حدث في يومِها ، وقتها اقتربت من جسدِه المختبئ أسفل الغطاء لِتدفئه وتستدفئ به كالعادة ، هذه المرة لم يعلم ماذا حدث وأدّى إلى ما آل إليه الأمر ، ثم عندما انقضَى كُلّ شيء كانت تَرْتَسمُ على وجهِها ابتسامة بريئة من نوعٍ ما بينما تحرّك خصلات شعرها المتناثرة على وجهها إلى مُؤخرة رأسِها ، أما هو فقد شَعُرَ بغضبٍ مِمّا حدث أو هكذا حاولَ أن يَقنعَ نفسه ، بينما كانت كريستينا ترتدِي تلك القطعة الصّغيرة و التي لم يعلم ماذا تَداري بها وعلى وجهِها علامات تَعجبٍ واستياء من ردٍّ فعلِه كأنها تُريدُ أن تقولَ له لقد تركتك تَعْبَثُ بي كما تشاء وهذا ما أجده ، لذلك أكملَت لباسُها وخَرجَتْ مُستاءةً إلى عملها ، أما هو فقد تذكّر العهد الذي أخذه على نفسه قبل سفرِه بأن يُحافظَ على عفتِه و دينه مُعتبراً أن ما حدث مع أفراح قبل سفره كان رغماً عنه وأنها هي التي أغوته وأنها كانت فتاة سيئة السّمعة ! ثُمّ أنه وهو ابنُ القرية الصعيديّة وجده الشيخ مُحفظ القرآن لن يرضَى أبداً بممارسة الرزيلة ، لقد كانت أفراح غلطة وكانت كريستينا غلطة أخرى حتى تلك الفتاة

المجهولة التي أحضرها معه دون علمٍ كريستينا بعد أن شربَ كأساً واحداً من الخمر مُجارياً رفيقاً له في العمل في ذلك البار ثُمَّ عندما أفاق من أثر كأس الخمر أَحسَّ بتلك اليد الغريبة المستقرة في استكانةٍ على قطعة من جسده لا يصل إليها أحد إلّا هو ، كانت ثابتة دون حركة فأزاح تلك الأصابع عنه ، وقام من الفِراش باحثاً عمّا يسترُ به جسده العَارِي بينما يَنظرُ في ذُهولٍ ، لم تكن امرأة واحدة بل امرأتان عاريتان في فراشِه يُغَطّان في نوم عميق وقد تَبَعّثرت ملابسهما التحتيّة والخارجيّة في فوضَى عارمة حول الفِراش ، لم يكن يشعر بما حدث ، لقد كان تحت تأثير كأس خمر شربه مُحرجاً من رفيقِه ، إنه لا يرتكبُ مثل تلك الأشيّاء ، إنه يُصلّي ويقرأ القرآن ، إنه لا يفعل مثل تلك الأمور ، إن المرة الوحيدة التي اعتبر نفسه أخطأ فيها عندما مارس الرذيلة مع إحدى فتيات ليل ميلانو بالأجر على الساعة أما ما عدا ذلك فلا ذنب له فيه، فلم يكن مسئولاً عن أفراح أو كريستينا أو تلك الفتاتين اللتين وجدهما مُلقَتين في فراشِه ، منذ صغره كان يُفكّرُ في السّفر كوسيلةٍ لِمُغادرة قريتِه الصّعيديّة المدفونة في حُضن جبل أعلى تل ، ثم عندما نَضَجَ وجد نفسه مُنساقاً مع أبناء القريةِ لفكرةِ السّفر لإيطاليا ،لقد رَحَلوا جميعاً دفعة واحدة وقد وعدوا أهلهم أن يُحوّلَوا قريتهم لقطعةٍ مُتوهجةٍ من إيطاليا ،سوف ينقلون"الغاليريا"بمتاجره الفاخرة من ميلانو إلى القرية ،وتلك الشّوارع الصّخريّة لِلقرية سوف تصبح من "الموزايكو"أو الرُّخام تَمرُّ بين عشرات من الأبراج السّكنيّة الفاخرة و المحلات التُّجاريّة التي تبيعُ مُختلف المنتجات الحديثة ، وقد يُغَيّرون عملة قريتهم إلى اليورو،

إن أموالَ إيطاليا كثيرة ، يستطيعون أن يحققوا ذلك فعلاً؛ لذا فقد جمع أهالي القرية كُلّ ما كانوا يَمتلكونه من ذهب ومال ودفعوه ثمناً لسفر أبنائهم ناصحين لهم ومُحذرين من أن تنسيهم إيطاليا الجميلة مَوطنهم كما فعل السابقون من أعمامهم وأخوالهم ممن ابتلعتهم إيطاليا ولم تُعيدهم مرة أخرى ، دفعة أخرى من الشّباب قدمتها قرية الضّباب كما يسمونها لإيطاليا من أجل تغيير مصيرها الذي يسيرُ إلى أسوأ ، كان هو في إيطاليا حيث ساعده على السّفر خاله قبل ذلك بأعوامٍ ، ثُمَّ ساعده على العمل بإحدى مقاهي ميلانو الفاخرة والتي تعتبرُ من معالم المدينة المشهورة ، إن حياة ميلانو هي حياةُ للأثرياء فقط دون غيرهم من البشر ، هواؤها الذي يدخل إلى الجسد يَتمُّ تداوله باليورو ، كان في غايةِ السّعادة عندما حصل على تلك الحجرة الصغيرة في أحد شوارع ميلانو المترامية الأطراف بعيداً عن قلب المدينة الباهظ الثمن ، ثُمَّ عندما واتته الفُرصة جلب شريكاً له في الغرفة ليساعدَه على سداد الإيجار الغالي لِلغرفة ، وكانت ذلك بداية مَعرفته بكريستينا تلك الفتاة التي جَاءت من الرّيفِ الأيطالي لِلْعملِ في ميلانو من أجل أن تعيشَ حياة المدينة والترف ،لقد كانا بالفعل مُتشابهان فكلاهما جاء من قرى مَجهولة ولكن هل قريتها يُحيطها الضباب كقريتِه ، يتذكّرُ بعد قدومه بأعوام تلك الرسالة التي تُخبره بأن عدداً كبيراً من شباب قريته قد عقدوا العزم وأنهم قادمون إلى إيطاليا في أقرب وقت ، كأنها لعنة حَلّتْ بهذه القرية منذ زمنٍ بعيد ، أن يَكبرَ الصغار ثُمَّ عندما يصيرون يافعين تقدمهم القرية قرباناً لإيطاليا لِيكملوا ما بدأه السابقون ولم يكملوه.

ولكن ها هو قد عَاد بعد سنوات كثيرة _ فشل في إحصائها _ إلى قريته التي شهدت أيّام طفولتِه والتي يتذكرها جيداً كصور فوتوغرافية داخل متحف ، يعلمُ أنها سنوات كثيرة ربما ما أكَدّ له هذا ذلك الشّعر الأبيض المُستشرِي في رأسِه وتلك الخطوط العَريضة من التّجاعيد على جبهتِه ، وها هو يجلسُ الآن على نفس الكرسي الذي تَمنَى دائماً أن يعودَ لِيجلسَ عليه بينما كان جالساً على مقعد فخم من الجلد في "الغاليريا" أغلى أماكن تَسوق ميلانو يَرتشف فنجاناً من القهوة بِخمسة عشرة يورو متابعاً السّياح والمارة بسياراتِهم الفاخرة ينفقون مئات وآلاف من اليورو في فُسحة تَسَوُّق نهاريّة حيث لا أحد منهم يتخيّل أن هُناك شخص يتفحّصُهم جاء من قرية من صعيد مصر تَقْبعُ فوق تلٍ يُحِوطُه الضّبابِ من الجهات الأربع ، إنه عملةٌ نَادرة بِالنسبةِ إليهم ، لو علموا من أين أتيَ لِصُّوروه هو بدلا من "الغاليريا" ، ولكنه بقريته الصّغيرة الواقعة فوق تل غير مَرئِي أبعد ما يكونُ عن خيالهم ، بل هو غير مرئي بتاتاً .. يرفع أنطوني الفنجان الفارغ من أمامه في نفس اللحظة التي يرفع فيها عم تَعلب العجوز الفنجان من أمامه ، كأنه قد انشقَّ إلى شخصين وليس شخصاً واحداً ، يَشْعرُ أنه يَجلسُ في مكانين مَختلفين في نفس الوقت أو أن أداة الزمن قد جَمَعَتْ بين حدثين في بُؤرة زمنيّة واحدة ... ها هو يَخرجُ من البُؤرة الزّمنيّة ، يعودُ إلى قريتِه مرة أخرى مُحاسبًا عم تعلب على القهوة بِخمسةِ عشرة يورو ، يَمسكها عم تعلب مُستغرباً ، يقوض اندهاشه ، يعطيه جنيهاً ويأخذ الخمسة عشر يورو ، يَنصرفُ عم تعلب في خُطوات آليّة ، يرتعشُ الفنجان الفارغ بين يديه بينما

يَختفِي في جُحر المقهَى .. يُواصلُ تأمله لِلقريةِ الصغيرة بِشوارعِها الضَيّقة الصّخرية الممتلئة بالحفر ، لقد توقف الزمن فيها خلال تلك الحقبة لتكون دليل إدانة لِكُلّ من تركها وسافر ، ينظر لعم علي عبر الطريق لازال جالساً على كرسيّه وسط الدُّكان الصغير منذ أكثر من ربع قرن مُستنداً بخده على إحدى يديه ، يبدو عليه أنه في انتظار معجزة وعد بها أبناء القرية منذ أكثر من ربع قرن ، لابُدّ أنه ينتظر ابنه أيضا الذي سَافر مع من سَافر ، ولكن لا أحد سوف يأتي ،إذ يبدو أن الخبرَ لم يَصلْ القرية بَعد ، هل يُعقل أن القريةَ التي أَرسلتْ جميع أبنائها دفعة واحدة لم تعلم بعد أن المركبَ لم تَصلْ أبداً إلى إيطاليا وأن مقرّها الأخير كان في قاعِ المالح ، أم أن القريةَ في حالةِ إنكار لما حدث ،أو لعلّ الجرائد لم تَأخذْ قط طريقها إلى القرية ، يَنظرُ لوجوه أهل القرية ،يبدون كموتى أو أشباح ، وجوه مريضة تتبادلُ السُّعال في الطرقات والشُّرفات بَدلاً من السّلامات ، تذكر بعض الأسماء التي سأل عنها" فتحي عبد الجليل متوفى ، التشخيص سرطان الرئة ، أشرف وهدان صديق مُتوفى ، التشخيص سرطان الرئة ، عوض المحسباني وفوزي المحسباني وهريدي وسالمة المحسباني أخوال متوفون ، التشخيص سرطان الرئة ، فرح عبد الستار و قدري أحمد عبد الله ...ابنه متوفيان، التشخيص سرطان الرئة"، تنزل قطرة من عينه تفرض نفسها وتدفع غيرها على خده ، تَحرّك بِتثاقُلٍ متكئاً على عكازه المعدني نحو السيّارة الفخمة التي يمتلكها ، سلك طريق الخروج من القرية عبر عيون مرضى تنظر نحوه نظرات فارغة من أيِّ مضمونٍ كأنها أعين مخدرة في تجويف زمني مُخِيف ، يَمر عبر الطريق الإسفلتي

الذي صنعته البلديّة حديثاً بطلب منه ، لقد نُفِذَ في أيّام قليلةٍ ، ربما نقود إيطاليا فعلاً تُعطي مفعولها ، ما دفعه لِلدّهشةِ أن أحداً من البلدية لم يعلمْ أن هُناك قرية يعيش بها بشر تَقْبعُ فوق التّل ... انزلقت السيّارة سريعاً من فوق المنحدر المسفلت حتى وصلت لأسفل التّل ... عندما ابتعد عن القرية كانت الشّمس ساطعةً في كلّ مكان ، توقّفَ بسيارتِه مُتأملاً ، نظر حيث القرية المختفية فوق تَلّ في حضن الجبل .. من فوقها كانت تلك السّحابة الضبابيّة المنبعثة من مصانعِ الطوب ومَحارق القمامة المحيطة بالتل ، إنها قرية تَموت ، تذكر أحلام أهل القرية ، سوف ترتفعُ الأبراجِ السكنيّة الفاخرة بدلاً من العَشش ، ستصبح قطعة مُتوهجة من إيطاليا ، ستُعَمّر طرقات وشوارع القرية ، تَمتلئ بِمتاجر ومقاهي فاخرة يصعد إليها السّياح ليستمتعوا بأوقاتِهم ، دمعت عيناه ثانية ، لم يستطع أن يقدم شيئاً لِلقريةِ هو ومن سبقوه ، ربما الشيء الوحيد الذي استطاع أن يقدمه لها لم يَكن غير طريقِ أسفلتي لِلخُروج من القريةِ .

سُلّم من خَشبِ الزّنجة

كان مُستيقِظاً في الظّلام يَتحيّن الوقت المناسب لِلخروج ، يعتقدُ أن أنسب وقت هو الثانية صباحاً وقتها يكون الليل قد أملَى شروطِه على الخلق ، وبدورِهم يكونون قد أخذوا وقتهم وانصاعوا لأوامره . . . ارتدَى ملابسه ، أخذ ما يحتاجه معه ، اتجه نحو النّافذة ، فتحها برفقٍ فانسكب ضوءُ القمر الفِضي المكتمل داخل الغرفة ، انكشف علَى أثره الأسرّة المتزاحمة كموقف سيّارات الميكروباص ، لم يستطع أبوه أن يوفّرَ له وأخوته غير تلك الغُرفة ، نظر للأجسادِ المتشابكة والمتراصة على الأسرّة ، لم يتمكن من تَمييزها ، رؤوس فوق الأرجل وأيّادي نبتت لها أفخاذ وبطون لم يُفرقها عن الظُّهور ، كتلةٌ من لحمٍ بدت كلوحةٍ غير منطقيّة مَقززة ، لم تكن النّافذة مُرتفعة عن الأرض فهم يقطنون الدور الأوّل ، وضع قدميه على الإفريز وبحركة واحدة استقرّ واقفاً على الرّصيف ، أصواتٌ مُتقطعة أفسدتْ لوحة الصمتِ السّائدة في فترة بعد منتصف الليل ، صفيرُ صراصير ليل . . . زيق بدال دراجة ثُمَّ صوت آخر مُزعج لِدراجةٍ ناريّة بَدت أنها بلا" شكمان" ثُمَّ عاود جدار الصّمت مرةً أخرى ، التقط سلمه الخشبِي ذو الثلاث درجات من مَخبئِه الذي اعتاد عَلى وضعه فيه ، نَظَر إليه بفخرٍ ، صنعه من خشب صناديق الرّنجة الفارغة ، أضاف له درجة رابعة حتى يسهل عليه اجتياز سور المدرسة ، شعر أنه صنع

شيئاً عظيماً كسفينة حربيّة أو مَدفع آلي ، اتجه نحو السور الخلفِي لِلْمدرسةِ والتي تُطِلُّ على بيته ، تَسلّق درجات السُّلم ، أنزل إحدى ساقيه لِلْجانب الآخر ، تلفّت حوله خشية أن يكون قد رآه أحد٠٠ من فوق سور المدرسة استطاع أن يَرى نافذة بيته التي تركها مفتوحة، عندما دقق النّظر تَبيّنَ له الأجساد المتلاصقة كما هي تَقْبَعُ في صمت إلّا من تلك البُؤرة الصّغيرة من البطانيّة والتي تتحرّك بآليةٍ إلى أعلى وأسفل وسط كومة الأرجل والأفخاذ المكشوفة ، حاولَ تبيّن صاحبها أدرك أن أرجلَ البَشرِ كُلّها مُتشابهة.

عندما نَظر في اتجاه آخر اِستطاعَ أن يرى الْجُزء الأعلى فقط من ورشة الميكانيكي التي يعملُ فيها صباحاً ، تقع مباشرة أمام الباب الرئيسيّ لِلْمدرسةِ ، أنوار ليليّة مُضِيئة انبعثت بِرْفَقٍ من داخل المدرسة، انطلقت من إحدى الحجرات ، أدرك أنه غفير المدرسة ، رآه في المرات السابقة ، تَحرّك بخفّة هَابطاً خلف السور ، اعتمدَ على جذعٍ شجرة البُونسيانا والجدار الخلفي لِلْحمامات ونوافذها ذات القضبان الحديديّة ، انغمست قدماه في بركة من الماء الراكد في حوض الأقحوان المبتل ، أدرك أن الغفيرَ قد فَتَحَ عليه الماءُ مُنذ قليلٍ ، تَصرّف بِحذرٍ ٠٠٠ اِتّخذ طريقَه المعتاد جهة الممر المبلّط وأسوارِه المبنيّة من العُروق الخشبيّة السّميكة حيث الفُصول والحجرات على طول الممرّ ، عندما حَطّت قدماه على الأرض المبلطة تَركت خلفها أصداء صوتيّة مزعجة ، تجنّب حدوث ذلك حتى لا يسمعه الغفيرُ ، دخل أوّل فصل قابله ، أخرج من جعبتِه الشّمعة والكبريت والكراسة وقلمه الرصاص الصغير ، خليط من الأشعة الذهبيّة لِلشمعة مع

السلاسل الفضيّة المنسكبة من ضوء القمر وَضَحَتْ على أثرهم السّبورات ، مُمسحة الطباشير لم تُبق غير كلماتٍ قليلة ، تنقّل من فَصلٍ لآخر ، كتب ورسم كُلُّ ما وجده مَكتوباً على سبورات الفُصول ، ابتهج كلما وجد شيئاً جديداً على إحدى السبورات ، إنه بارع في رسم الكلمات والحروف بقدر براعته في تغيير زيت مُحركات السيّارات صباحاً أو صنع السَلالم والكراسي والأرفف من خشب صناديق الرّنجة الفَارغةِ.

كان يتمنى دخول المدرسة مثله كبقية أطفال سنه ، قال له والده: "سأعلمك صنعه أفضل من المدرسة ، خريجو المدارس لا يجدون ثمن الخبز الحاف" أفاق من شروده على صوت ابتهـــالات الفجر ، أدرك أن الوقت قد مَرّ ، تَحرّك عائداً على نفس الممرّ المبلط ، هبط درجـــات السّلم الرخاميّة والمؤديـــة لفناء المدرسة ، انتبه لِلْعلم وسط الفناء ، تَحرّك في خفـــةٍ نحوه ، تأكّد أنّ أحداً لا يراه ، أطلق نظرة مُتفحّصة على حجرة الغفير المضاءة ، في حَذرٍ شديد جذب حبل العلم ، ارتفـــع العلم لآخر السَّارية ، تَخيّل نفسه واقفاً بمقدمة طابور العلم ، رأسه مرفوعـــة لأعلى يداه بجواره ، يردد بصوتٍ عالٍ " بلادي •• بلادي •• بلادي •• لكي حبي وفؤادي" انتبه على سعـــال الغفير التفت سريعاً نحو غرفتِـــه المضاءة ، لَمحه في منتصف الطريق بين الْحجرةِ والحمامـــاتِ ، سيمرُّ بِجانبِ العلم بعد لحظات ، لم يره بعد ، لازال مُتسّمراً مكانه بجوار العلمِ من هَولِ المفاجأة لا يعرفُ ماذا يفعلُ ، فجأة اندفعَ جَارياً جهة شجرة البُونسيانا وجدران الحمّامات قبله ، التفت وراءه لِوهلـــةٍ وهو يَلْهَثُ ، وجده مُندفعاً

إليه بكُلِّ قوة ، سمع صياحه:" تعال يا ابن الكلب ، قف عندك ، تعال يا ابن الكلب ، قف عندك" ... زاد من سرعتِه ، أوشكَ أن يصلَ إلى الحمّامات ، سَاعده على أن يَسبقَه ضخامة جسم الغفير الملحوظــة وشحومه المترهلة أمامه ، داسَتْ قدماه في حوض الأقحوان ، تناثر الطّين من حوله ، غَطّى وجهه ، واصل سعيه نحو السور بِسرعةٍ غير عادية دعمها حَالة الخوف التي أصابتــه من الغفير أسند ظهره على السور ، بدأ في تسلّق جذع البُونسيانا ، عندما أوشكَ على الوصولِ لِلْحافةِ قَبض شيئاً قويــاً على إحدى قدميه ، نَظر لأسفل ، يد الغفير تعلّقت بساقه بينما لا يتوقف عن النّباح ككلبٍ بوليسي دُرب على القبض على اللّصوص ، ضربه بقدمِه الأخرى في وجهه أفَلتْ من بين أصابعه ، فَردة من حذائه سقطت في حوض الأقحوان ، حاول الغفيرُ وضع جسمه بين الجدار وجذع الشّجرة في مُحاولة يائسة لِتسلقَ السور ، المساحة الصغيرة من الفِراغ بين السور والبُونسيانا لم تسمحْ له بذلك ، عندما كان يَهبطُ درجات السّلم سَمِعَ صرير بوابة المدرسة ينفتح بِعنفٍ ، يكسر حواجز الصمت القويّة التي تركها قبل ظهور الغفير ، اندفع جَارياً تَاركاً السّلم وراءه ، صوت الغفير لازال يَنْبَحُ في الظلام ، تَخطّى بيته مُبتعداً حتى لا يَدلُه على مكانه ، جَرى عبر شوارع وحواري ضيقة ، خَشي أن يَشمَّ الغفير رائحتُه من حذائِه المفقود ، أن يعودَ لبيتِه فيجده أمامه ، يَنقضُّ عليه بأسنانه ... تسلل داخل إحدى البيوت ، اختبأ في بِئر السُّلم فَزِعاً مُلتقطاً أنفاسه الضَائعة ، أصواتُ الأرجل المسرعة تَشتدُّ وتَخفّتْ بِجــوار البيت كلّ قليلٍ ، انتظر وقتــاً غير

قصير في مكانه ، ضوءُ الصّباح جلس بِجوارِه في مَخبئه ، أصواتُ الدّيوك والعصافير تتصاعدُ شيئاً فشيئاً ، تسلل إلى الشّارع مرة أخرى، اختفَى وسط البشر الذين تفرزهم تلك البيوت كلّ صباح ، تَسلّق نافذة بيته الأرضيّة ، الأجساد لا تزال مُتلاحمة كما هي ، بؤرة الحركــة التي رآها من فوق سور المدرسة بَاتَتْ خَامــدة ، الكلُّ لازال نائمــاً ، يبدون كأنهم تعرّضوا لِحادثِ إبــادة جماعيّــة ، ضوء الصباح الخامل يرمى ظلاله داخل الغرفــة ، أخرج كراسته ، تأمّل ما تعلمه اليــوم ، أخذ يُقلّبُ مُبتهجاً بين صفحاتِها ... حين فعل ذلك تكشّفتْ له الحقيقــة الغائبة التي ينساها كُلّ ليلةٍ ... إنــه يُجيدُ فقط رســم الكلمــات والحروف ولكنه لا يستطيعُ قراءتهــا.

عَقْلٌ كَبِيرٌ

عندما كان صغيراً ، كان ينظر لِلْجُدران المحيطة به مُندهشاً من ذلك الوُسْع الكبير الذي يعيشُ فيه مُنطلقا من بداية الحجرة وحتى نهايتها ، يشعرُ بالسُّعادة أو أن ذلك العالم ملك له وحده ، لا يفعلُ شيئًا غير أن يأكلَ ويشربَ ما يقدمونه له من طعام ، رفاهية جميلة وراحة مُتناهية ، يتجشّأ من الشّبع ثُمَّ يَنْطلقُ مرة أخرى في عالمه الفسيح من أوَّلِ الغُرفة وحتى آخرها، عندما كان لازال صغيراً كان يشعر بذلك الوُسْع الكبير من حوله إلّا أنه شعر أنه قد أصبح كبيراً الآن ، أَحسُّ بذلك عندما أصبح يَجتاز المسافة من أوّل الغرفة وآخرها في وقت أقل مما سبق ، أشياء بدأت تُحيّره وتَجعله يَجلس صامتاً مَتروياً في ركن الغُرفة ، الشيء الأوَّل أنه لا يعرفُ لماذا لا يتحدثون معه؟ وكأنه ليس فرداً من أفرادِ هذا البيت ، وإذا كانوا يكرهونه هكذا فلماذا يهتمون بشأنه ويتعبون أنفسهم فيما يأكل أو يشرب، فقط يقدمون في صمت ، في البداية لم يكونوا يَكترثون بالنّظرِ إليه ، بعد ذلك كانوا ينظرون إليه تلك النّظرة الغريبة من أسفلِه لأعلاه نظرة لم يعرف مغزاها ، الشيء الآخر الذي جَعله يتأزّمُ هو أن عرف أن العالم ليس تلك الجدران الصغيرة التي تُحيط به وأن هناك عالماً أكبر في الخارج يُحجبونه عنه كأنه ليس من حقه أن يتعرّف عليه ، لقد بدأ ذلك الأمر عندما كان يتمشى كعادته داخل الحجرة ذهاباً وإيّابا مُتأملاً في الأرض ومُفكِراً في حاله وكان قرب الباب

المغلق عندما انفتح الباب فجأة لتقديم طعامِ الإفطار له ، فجأة حدّقَتْ عيناه في الضوء الذَهبي المنسدل من الخارج والذي وقَع على أرضيّة الحجرة وتلك الأوراق المريحة الألوان التي ترفرف بقوةٍ بفعل الهواء الشديد المتدافع في الخارج ، شبَّ على قدميه كي يرى أكثر ولكنهم لم يسمحوا له بذلك ، منذ ذلك الوقت وهو يُفكر في ذلك العالم الخارجي ، يريد أن يتأملَه ويتدبّر فيه أكثر وأكثر ، لا يمكنُ أن يكونَ الله قد خَلقه من أجلِ أن يَأكلَ ويشربَ ويزدادُ تُخمةً ويظلُّ سَجيناً بين تلك الجدران الأربعة ، من الواجب على كُلِّ كائن حي أن يسعَى لِتَدبر ما خلق الله ، لن يَنْزَوْي في ذلك الركن سيبقَى بجوار الباب لكي يستطيع أن يرى أكثر مما رأى.

ذات مرة عندما كان البابُ مُغلقاً وانفتح في غير الموعد المعتاد ، فُوجئَ بهم يُطوقونه بعنفٍ ، يقاومهم مَذعورًا ، ولكنه عندما وجدهم يتجهونَ به نحو البابَ توقّفَ عن المقاومة ، لو قالوا له ذلك لخرجَ معهم في هدوء ، إنه يريد أن يخرجَ من تلك الحجرة منذ زمن لقد ملَّ منها ،لقد قَضَى عمره كُلُه سجينَ هذه الغرفة ولعلّه الوقت المناسب لتركها ، ليواجه الواقع ويرى ما ينتظره بجُرأةٍ خارج هذه الجدران ، لقد آن الأوان أن يتحرّر ، ردّد الله أكبر بصوتٍ عالٍ ، لقد تَحققَتْ أمنيتُه ، ها هو شعاع الضوء الدافِئ مرة أخرى يَنعَكس في عينيه مُنطلِقًا من ذلك القُرْص الأصفر ، في خلفيتِه فضاء واسع أزرق أكبر بكثيرٍ من ذلك الفضاء الذي كان موجوداً فيه داخل الحجرة ، وتلك الأوراق الخضراء التي تهتزُّ بقوةٍ بفعلِ الهواء مُصدرةً تلك الرائحة الجميلة التي تعبق أنفه ، شعر بالسعادة ، إنه يستكشف العالم .... ولكن أين يقتادونه ... ولماذا هو دائماً في الأسر ؟

يمرُّ من أمام إحدى الجدران العجيبة تعكس صورته وصورة من يقيّدونه ، يتأملُ في ذلك الجدار بِذهولٍ ، لقد كان شكله عجيباً يَختلف عن شكل هؤلاء الذين اعتاد منهم أن يقدموا له الطّعام ، صوتُ يَصدرُ ، هل أحضرت الديك ؟! لازال يستكشف كُلّ ما حوله ، يتساءلُ ما هو الدّيك ؟ الصوتُ يُصدرُ مرةً أخرى: " لقد أصبح كبيرا ما شاء الله" ، يُكرّر السّؤال على نفسه مِراراً: " ما هو الديك ؟ ما هو الديك ؟ ما هو الديك ؟"

على المائدة انتظمت مختلف أصناف الطعام ، في وسطها كان ذلك الطبق يتوسطه ديكاً مشوياً كبيراً ، عيناه الفضوليّة الممتزجة بألمٍ من نوع ما لا زالت مُحدقة في الفراغ كأنها تُواصل طرح مزيد من الأسئلة •

وَجْهُ قَدِيمٌ

بوجهٍ قديمٍ بالٍ يرجع لما يقرب من بداية القرن الماضي ظهر من بين السيّارات المتدفقة على نهر الطريق فوق دراجته المطموسة النوع ، وثيابه الرّثة المتآكلة يُحرّكُ رجله مرة لأعلى ومرة لأسفل بِحركاتٍ روتينيّة بَطيئة مضجرة كأنه يفعل ذلك دون وعي من عشرات السنين ، بدأ يُبطئ دراجته رغم بطئها مُتخذًا انحرافًا شيئًا فشيئًا نحو اليسار ، يُحاول إيقاف التّدفق العشوائي لِلزّمن مستخدمًا قدميه الاثنتين كفَرامل على الإسفلت المفروش أسفله ، توقَفَتْ الدّراجةُ أمام مقهَى قَديم بِجُدرانٍ عَتيقةٍ وَسقفٍ مُرتفع وطاولات رُخاميّة وكراسي خشبيّة ، ركن الدراجة بعناية على حافة الرّصيف ، بدا من اهتمامه كأنه يركن آلته الزّمنية التي سيعودُ بها بعد قليل من حيث أتى ، رفع صوته ليصلَ لصاحبِ المقهى الجالس على المكتب الخشبي على اليمين في آخر المقهى ، ناداه : "معلم أحمد" ، ردّ عليه بالمثل:"عم عبده" رافعاً يده ، أحضر عامل المقهى كرسيين مُتهالكين ، عاينهما بعناية ، تأرْجَحا بِشدةٍ بين يديه ، كلّمه عامل المقهى: "أريدهما أحسن من الجديد" ، قالها مشككاً فيه ، ردّ عليه بِصرامة:"انتبه لزبائنك ودعني أقوم بعملي وأحضر كوبا من الشاى" ، ابتسم له مُشككاً مرة أخرى، لم يُعره اهتماماً، سحب كيساً من القماش من على الكُرسي الخلفي للدّراجة ، أخرج منهِ أدوات ومسامير ، بدأ يَرْشقُ المسامير في جوانب الكرسي وأرجله المتأرجحة ، يَتوقَفُ كُلّ قليل لِيرتشفَ بعضاً من الشاي الذي أَحضره عاملُ المقهى ، نظر إليه بطرفِ عينه ،

لاحظ أنه يتابع عمله في ذهابه وإيّابه ، يواصل الطرق فوق المسامير ، كان يَحلم أن تكون له ورشة في يوم ما يصنع فيها الكراسي ، يكون تحت يده أسطوات صغار يوجههم يميناً ويساراً ، بدلا عن ذلك ظل عاملاً طيلة حياته كبر الصغار أصبحوا كبارا ظل كما هو، صار الكبار أمواتاً ، تحولت الورش لمعارض ، لم يعد له مكانا ، يواصل الطرق على المسامير ، تَخْرجُ المسامير عن مسارِها المرجو ، يَنفلقُ الخشب في أكثر من موضعٍ ، مسامير أخرى تَنْثَني وأخرى مُدببة أطرافها قُرب قاعدة الكرسي كأنه خصصها لتمزيقِ ثياب الزبائن الجديدة ، عامل المقهى يتابعُه بفضول، يُحاول أن يتفادَى نظراته ، يده المرتعشة لم تُعد تصنع تُحفاً خشبيّة كما كانت ، ينتهي من الكرسيين ، يُنادي عليه ، يريه صلابة الكرسيين ، يتفحصهما العامل بعينيه ،يُقَطّبُ مابين حاجبيه يبدو عليه أنه سيقول له شيئاً ، لا يعطيه الفرصة ، يُحرّكُ الكراسي يمينا ويساراً بحركاتٍ سريعةٍ كأنه حاوٍ في سيرك ، يضغط عليها بقوة يغطي بيديه الاثنتين مواضع التشققات التي أحدثتها المسامير في الخشب وأسنة المسامير المدببة عند قاعدة أحد الكرسيين ، تُجرح يده ، لا يُظهر شيئاً على وجهه ، يَخبطها في الأرض ليُظهر صلابتها ، يرفعُ صوته لُيسمع المعلم الجالس في الداخل :" أصبحت أفضل من الجديدة" ، يَحسّ بحدّةِ المسمار الذي اخترق كفه ، يُشيرُ المعلم لعاملِ المقهى ، يعطيه خمسة جنيهات ، يُناولها لعم عبده ، يعاودُ سحب نفساً من الشّيشة أمامه، لا يُكلّفُ نفسه مَشقة الالتفات لرؤيةِ الكرسيين ، يَفرح بالخمس جنيهات ، يرفع يده له بالسلام ، يخاطبه بصوت عالٍ: "كل عام وأنت بخير"، يرد عليه برفع

اليد في هدوء ، لا يُعيرُ العاملُ اهتماماً ، يركب دراجته الصدئة ، يركبها منذ كان صغيراً ، تعودُ لعشرات السنين يعرفُ أنه لا يستطيعُ تغيير دراجته كوجهه القديم الذي أتلفه الزمن لا يستطيع تبديله ، يناديه العامل في خُبثٍ: " سلام يا عم عبده"، لا يلتفت إليه ، يشير له بكفه دون اهتمام ، يَضيع وسط سيل السيارات المارة من الطريق المسفلت أمام القهوة ، يَختفِي كَنقطةٍ صَغيرة غير مُهمةٍ داخل لوحة مُزدحمة بضجيجِ الحياة ، يتابعه العاملُ في صمتٍ ، يلتفت لمعلمه الذي يُواصل تدخين الشّيشة صانعاً دُخاناً بِعبقِ التّفاح كأنه يَصنعُ إعلاناً لِنوعٍ من التّبغ داخل المقهى ، يقول له مُتخابثا: ألم يكن من الأفضل إحضار نجار حقيقي بدلا من هذا ال (...) يستطرد....لقد خرّب الكرسيين ، يلتفت إليه مُستخفاً بعقله ، يُعلّقُ:" أنت أغبي مما تبدو عليه .. ألم نتفق مع شركة البلاستيك أن تُورّد لِلقهوة أكثر من خمسين كُرسيّاً وطاولة بلاستيكيّة خلال أسبوع لتغير كراسي وطاولات القهوة القديمة ، يواصل حديثه بصيغةِ الأمر ، أحضر الكرسيين وارمهما داخل المخزن مع باقي الكراكيب القديمة أيُّها النبيه" ، يحضر عامل المقهى الكرسيين ، حاجباه يقطّبان بعلامات استفهامية ، سؤال يريد أن يخرج من فمه يريد أن يسأله له : لماذا أرسلتني لعم عبده لِيقومَ بإصلاح الكرسيين ؟! ، لا يتفوه بسؤاله خشية إزعاج معلمه ،يظل يبحث عن السبب داخل عقله ، لا يعطيه عقله أيّة إجابات ، يلقي بالكرسيين مع كراسي خَربة كثيرة وشيش وطاولات تالفة ملقاة داخل المخزن، يُتابع عمله بينما يواصل معلمه صنع هالات ضبابيّة كثيفة برائحة تفاح صناعيّة .

عُيُون سُنْدُس

كان نازلاً على درجات سُلَّم بيتِه متجهاً إلى الباب الخارجي في الشارع الجانبي المتفرع من شارع رئيسيّ في بلدتِه الصغيرة ، كان يشعرُ بِخوفٍ لا يعرفُ مبعثه ، ربما كان من تلك اللفحات الباردة التي يَخشَى أن تواجهه رغم أنه كان مُرتديًا فانلة من فوقها فانلة من فوقها قميص من فوقه ملابس صوفيّة ثقيلة يَعلوها ردائه الجلدي الأسود وقد دسّ فيه كوفيته الوبريّة الخضراء وغطّى رأسه بتلك الطاقيّة المشغولة من التريكو الأزرق .. وربما كان مبعث خوفه من الخروج ليس مَرجعه ذلك الجو الخريفِي الشتوي السائد .. " هكذا حدّث نفسه" قد يكون أنه يَخشَى النّظر إلى تلك الفتاة الصغيرة سُندس ذات شرائط الشّعر الحمراء والفستان الشيفون الأبيض حتى ركبتها مع حذائِها الأبيض المرصّع بالكريستالات اللامعة كفتاةٍ أتت من بين سطور قصة خرافيّة قديمة يداولها العامة فيما بينهم .. لم يكن يُحِبُ نظراتها.. عندما تفعل ذلك ترشقه بعيونٍ واثقةٍ تَخترقه كسهامٍ حادة تَجعله يكاد أن يتهاوى أرضاً صريعاً وسط الشارع.. رُبّما ليس ما يَشعرُ به بسبب تلك الفتاة المتسلطة الغريبة الأطوار كما يراها بل بسبب هذا الدَرج الجالس عليه لا يُفارقه كغرفة للمعيشة ، أو أن السبب أنه يعتبره الخط الفاصل بين شقته و العالم الخارجي بقذارتِه البغيضة وآلامه المريرة ، رغم جلوسِه على عتباتِه السّفليّة لم يكن الظلامُ قد لّون جدران البيت البيضاء بفرشاتِه السوداء رغم ذلك

شعر به داخله يقتحمُ عليه خلايا جسده الحمراء فيظلمها ، الضوء المتساقط على الدرج الرُّخامي الأسود من بقعة ظاهرة من السّماء يكشف بئر السُّلّم الرحب بِخيوط باهتة كئيبة ، يقشعر جسده برودة عندما تقع عينه على السّحاب الرّمادي المتجمع أعلاه ، تتساقط ظلال سوداء قاتمة داخله كقطعِ الثّلج المتهشّم ، يُحاول إقناع نفسه بالتّغلب على مَخاوفِه والخروج من هذا البيت والمواجهة ، في كُلّ مرة يُفكّرُ في ذلك يتذكر عُيُون الفتاة سُندس كَساحرةٍ شريرة تُسيطر عليه فَتضعفه .. يُقنع نفسه بأن ما يشعر به فقط بسببِ المطر وليس فتاة صغيرة يَخْشَى النّظر إليها ، إنه يَكْره المطر يُشْعِرُه بِكآبةٍ تَتساقط داخله فَتُغرقه ، يَتهادَى لسمعِه صدى صوتٍ لطفلٍ صغير يَضحك ، ينتهي من الدرج صعوداً ونزولاً بَحثاً عن مصدر الصوت ، يُطرق الأبواب الخمسة لِلمنزل خُماسي الطوابق .. لا أحد يُجيبه .. يتذكّرُ أن لا أحد يَسكنُ في الطوابق الخمسة غيره ، يُعاودُ الجلوس على الدرج ، منذ كم يوم أو كم شهر لا يَدرِي لا يُفارقُ الدرج، يحضرون إليه الطعام ويتركونه كحيوانٍ أليفٍ رُبط داخل البيت لا يُفارقه ، ربما هو حيوان أَليف دون أن يدرَي ، ينظر إلى جسدِه ، يتأكّدُ أنه يَشبهُ جسد البشر .. يُفكرُ في الخروج ثانية ، مفاتيح البيت في جيبه ساعتُه الذهبيّة اللون تُطوّق معصمه ، هاتفه المحمول في جيب مِعطفِه الأيمن ، لا يضعه في الجانب الأيسر حتى لا يَضرُّ بقلبه ، يسمعهم يقولون ذلك ، ملابسُه يَرتديها على أكمل وجه تَحسبًا لسقوط الأمطار ، لم ينس شيئاً ، كُلُّ شيء في وضع الاستعداد لِلخروج ، آه لقد نسي شيئا ، يتذكر ، لا .. لقد وضع نقوده في

جيب بنطاله الخلفي ، لم ينس شيئا، يتحسَّسها ، يتحسَّسُ جيوبه كُلّ قليل الضوء المنبعث من زُجاج الباب الخارجي للمترل يُعمِي عينه، يُحاولُ أن يتغلّبَ على منابعِ خَوفِه المتعددة البرد .. المطر .. العالم في الخارج بقسوتِه ، البشر الذين يَترصدونه لِيَسْقُطَ فينقضوا عليه ليغتالوه ثُمّ سُندس ، المترل الخماسي الطوابق يُطلق صرخة صمت كاتمة تُفزعه ،تَدفعه لِيتحرّكَ من مكانه المتروي فيه منذ زمن نحو الباب الحديدي المغلقة فتحاته بزُّجاج عازل للرؤية ، تزدادُ نَبضات قلبه كلّما تقدم خُطوة نحو الأمام ، تَرْتعشُ سلسة المفاتيح بين أصابعه عندما يُحاولُ فتحه ، لا يستطيعُ أن يجدَ المفتاح المناسب ، رغم أنه لم تَحتو إلّا على مُفتاحين فقط ، أخيراً يَعثرُ عليه ، يَخرج على الطريق ، تَهتزُّ ركبتاه ، يُغلق الباب خلفه ، يُصدر دوياً عالياً يَسمعه داخله فقط ، يهتزُّ كحجرة في بركة ماء تَطفو داخل قلبه ، يَتلفتُ حوله ، يَبحثُ عن أوّل مَخاوفه ،دائماً تُفاجئه خارجة من بيت ما ؛ تَلعبُ مع صديقات وأصدقاء صِغار مثلها ، تَجْمعهم حولها ، أو تَظهر من العدم كَشبحٍ صَغير ينظر إليه مُترصداً ، دائما يراها بفستانِها الأبيض المزّركش بِورودٍ زرقاء صغيرة مع شرائط حمراء رُبطت باحتراف وجمع أعلاها ضفائرها الطويلة ذات الخصلات الناعمة بُنيّة اللون ... يبحث عنها ... لازالتْ لم تظهر بعد ، متأكد أنها تُراقبه بعيونِها العسليّة الواسعة كعيني نِمر صغير من وراء نافذة أو خلف باب أو مُتنكرة في هيئةٍ غير هيئتها أو ترتدِي وجه طفل صغير من الأطفال الذين يَتجمعون حولها كلّ يومٍ لِتحكِي لهم حواديت وحكاوي قرأتها ... تبدو له كشخصيّةٍ قَفزتْ من كتابِ ألف ليلة

وليلة وجاءت لِتَسْكنَ ذلك الشّارع ، حتى أنه لا يَعرْفُ أين تَسكن كأنها تَحيا داخل كلِّ بيت ... يترّقبُ أطفالاً صغاراً يَتحرّكون من حوله كأشباحٍ صغار تُحيط به و تَتفحصه ، يَتفادَى الأشباح الصغيرة ، ما دام لا ينظر إليهم ن يروه ، تَهتزُّ ساقاه وتَرتعِشُ ، يُصْدرُ بحذائه أصداء أصوات خشنة على أسفلت الشّارع الجانبي الذي لا ينتهي ، لم ير سُندس بعد ، طفلان يجلسان معاً على عتبة بيت ، يَمرُّ من أمامهما ، يَشْعرُ بعيونِهما تَلْسعانه كأنهما من تلامذةِ سُندس السّاحرة الصغيرة ، يتخطاهما ، يسمعهما يَتحدثان عنه، "ذلك الرجل يعيش في البيت الذي حَكَتْ لنا عنه سندس قبل أن تختفي" قالا ، انتبه إليهما ، توقّف عن المشي ، عاد إليهما ، سألهما بترددٍ:"وماذا حَكَتْ سُندس ؟" ردّ أحدهما ببراءة مُطلقة:"حكت لنا عن طفلٍ صغير يُدعَى أحمد كان يلعب معها بالكرة والدراجة ويقفزُ من الفَرحة عندما يراها ويَجري عليها ويَطبع قُبلة وضحكة على خديها ويعطيها حلوته الخاصة التي يُحبها ؛ ثم فجأة اختفى كحلم راودها ثم تبخر في لحظة إفاقة " سأله الطفل الآخر عن طفل جميل كان يعيش في بيته كذاك الذي حكت عنه سندس ، استطرد بفضول طفولي:"لماذا ترتدي كل تلك الملابس ؟! ألّا تشعر بالحر؟!"، لم يَرُد عليه ،تسّمر مكانه لِبُرهة ، واصل طريقه إلى الشارع الرئيسيّ الذي يتفرع منه شارعه الجانبي الذي لم ينته بعد ، شعر بنفسه يَخطو على آثار خُطوات صغيرة مَشت على نفس الموضع الذي يسير عليه ، حاول تفادي السير عليها ، تذكر عيون سُندس في تلك المرة الأخيرة التي رآها فيها ، كانت تنظر إليه بعينٍ دامعة معاتبة لا تَرْمش ،كانت

ترتدي ذلك الفُستان الأبيض وتَضَعُ الشّرائط الحمراء في رأسها ، بدا عليها الغضبُ ، كانت كأنّها تَسأله أين أحمد ؟! ، كان يريد أن يقفَ ويشرح لها أن أحمد بخير أن يقول لها أنه يعيش في مكان آخر ، أن يحاول إفهامها كيف أن البيوت تتهاوى ، لكنه لم يعرها اهتماما ، عندما عاد إلى البيت علم ما حدث ، قالوا له هل تعرف تلك الفتاة الصغيرة ذات الضفائر والفستان الأبيض لقد صدمتها سيّارة قتلتها في الحال ، قالوا أيضا – سُكان الشارع – كانت شاردة تائهة في منتصف الشارع لم تتحرّك قيد أُنملة كأن غشاوة قد غطّت عينيها وعمتها في تلك اللحظة ... لم يُصدق ، كان يَرَى ابنه في عيني سُندس ، لقد حرمته سُندس من ابنه ، شَعَر بِغضب تجاهها ، تمَنى أن يراها لِينتقمَ منها .. مرّت أسابيع منذ اختفائها ، يشعر بها تراقبه من وقت لآخر كوميض ضوء يتعقبه .. لازال مُتجهاً نحو الطريق الرئيسي ، يشعر ببرد شديد يَجتاحُ جسده ، يُغلق معطفه الجلدي ، تَهب عواصف عاتية من خلاله ، يَرْبطُ كوفيته بعناية ، ينظر للسّماء ، لقد امتلأت غيوماً ، عندما أوشك على الخروج إلى الشارع الرئيسي كان المطر قد بدأ ينهمر بغزارة وقتها التفت عائداً إلى البيت ، أخرج المفاتيح مرةً أخرى بيدٍ مُرتعشةٍ ، دَلِفَ إلى البيت الْخُماسي الطوابق مُختبئاً من المطر ، استغربَ أن لم يستطع أن يُغادرَ ذلك البيت منذ أسابيع بسبب المطر ، أغلق الباب في الخارج كانت شمس أغسطس تنتصفُ السّماء بينما أشخاص يَتحرّكون هُنا وهُناك مُرتَدِين الملابس الصيفيّة.

المشي في الذَّاكرة

كان يَمشِي بين السيّارات مُجتازًا شوارع بلدته الصغيرة ، يده على جيبه حيث وضع تلك الصورة القديمة التي انثنت أطرافها في الجيب الداخلي لبدلتِه ، ينظر في الساعة ، الوقت لازال الحادية عشر صباحًا ، والموعد لم يأت بعد ، يتذكّرُ أن الموعد المنتظر في السّاعة الخامسة تمامًا يَجوبُ شوارعَ البلدة حتى تنقضي مدة الست ساعات المتبقية ، يُحاول أن يُشْغلَ ذهنه بِالتفكير في شيء آخر حتى يَمرَّ الوقتُ سَريعاً ، يُصبِّر نفسه بمتابعة أسماء الشّوارع التي يتجولُ بها والمحلات والمقاهي التي يَمرُ من أمامها والتي يَجلسُ عليها ، يسير في شارع طلعت حرب يقترب من تقاطعه مع شارع الجلاء البحري ، يتخذُ اتجاه اليمين حيث شارع الجلاء ، يتابع محلات الملابس والأحذية والبقالين المتراصةِ على جانبي الشارع ، يكتشف أنه مرّ عليها أكثر من مرة منذ الصباح الباكر ، يبرر ذلك بأن البلدة صغيرة ، لا يكف عن التحرك هنا وهناك من يمين البلدة إلى برها الغربي عبر فرع النيل الصغير وبين أحيائها القِبليّة الجنوبيّة و أحيائها الشّماليّة مُحاولاً شَغل ذلك الحيّز الكبير في الوقت وحتى يَحينُ موعد الرؤية المنتظر ، يَستعجبُ من ذلك القانون الذي يَملّكُ الأطفال لأحد الطرفين دون الطرف الآخر كأنهم شقة أو مال مُستحق ، يبدو كَنوعٍ من العقاب غير المعلن عنه ، غير أنه عقابٌ لِلرجال فقط دون النّساء كأنها دولةٌ لِلنّساء قد استضافوا فيها الرجال ، ولكن اليوم سوف يراه في

الخامسة مساء ، لا زال ينتظر الموعد بينما الوقت يتحرّك وئيداً سَمجاً و لازال يَمشي في شارع الجلاء ماراً أمام محل " صيدناوي"وسط البلدة ومركز الشُّرطة والمحكمة ومبنى المحافظة ، يَمرُّ أمامها كُلّ قليلٍ مُرتديّاً نظارته الشّمسيّة وواضعاً الجريدة أعلى جبهته لِتُحجبَ عنه أشعةِ الشّمس، يَخترقُ أوَّل شارع جانبي يُقابله لِيحتمِي داخله من قَيظ الظّهيرة ، يجلس على مقهى الغلبان ذات الكراسي الخشبيّة الأثريّة الطابع بطاولاتها الرُّخاميّة تحت شجرة "البونسيانا"، يَطلبُ فِنجانًا من القهوة المْحوّجة بالحبّهان ، يَرتشفُها بِرفقٍ بينما يتأمَلُ سيل السيّارات المتجهة يميناً ويساراً ، يُشْغِلُ نفسه بمتابعةِ لافتات الأطباء المعلّقة على شُرفات العمارات الْمُحيطةِ بالمقهَى ، يَخرجُ من جيب الجاكت الداخلي تلك الصورة التي تآكلت من كثرة تداولها ، ظهر فيها حاملاً طفلاً صغيراً قد ضمّه لصدرِه ؛ تتدلى أرجله بعفوية من فوق ذراعيه ، ابتسامة بريئة ارتسمت على وجهه ضحكات ذات صدى جميل لطفله تُدوي في ذاكرتِه ، تَتَشكّلُ مَجسمة أمامه مع حركة طفله ذهاباً وإيّابا في فناء البيت و من غُرفة إلى أخرى فوق الدراجة ثلاثيّة العجلات الخضراء اللون، يسمع صوته يُقهقه من الفرحة ، يَسقط أخيراً في حُضنِه ، يُلاعبه بِالكرةِ على الأرضيّة المبلطة لِلْسطح ، تُدوِي الكرة في عقله على هيئة طرقات معدنيّة مُدوية ، يَشعر بالصُّداع ، تَقفزُ الكرة من فوق السور نحو الأسطح المجاورة ، يَجهشُ الطفل لِلبكاء ، يَنشغلُ بالدراجة و ينسى الكرة ، يدور حول نفسه ، لا يَكلُّ ، يَصيحُ مرة أخرى من الفَرحة ، يَندفعُ نحوه يريد أن يصدمَه مازحاً بدراجتِه ، يُحاول الإمساك به ، يتبخّرُ من أمامه

كدُخان التّرجيلة المتصاعد من أركان المقهى، يَرْتفعُ صوت كلاكسات السيّارات ، ينتبه على أثره ، يَرتشف ما تبقى في الفنجان أمامه ، ينفخُ سِيجارة أشعلها منذ قليلٍ في شرود ، الوقت المتبقي على الموعد يَشْعُرُ به ثقيلاً أكثر من السنوات التي مرّت منذ آخر مرة رأى فيها ابنه ، تتوه عن ذاكرته صورته ، يعودُ وينتظر لِلصورة مرة أخرى ، الوقت يمرُّ ، نسمات باردة تلفحه ..الشارع بحري تَجتازه دائمًا الرياح القادمة من جهة النيل مندفعة بين العمارات العالية ، والمقهى لا يطاله الشّمس إلّا لِلساعة الحاديةِ عشر صباحاً ، أَريجُ خُضرة يتخبطها الهواء تَعبقُ أنفه وأوراق أشجار"البنسيانا"تهتزُّ بقوة ، ينظر لساعته الرقميّة كورية الصنع ، الوقت اقترب ، يُحرّكُ كرسيه مُحاسباً القَهَوجِي على عددٍ غير قليل من فناجين القهوة التي تناولها مُنذ الصّباح .

يَسلكُ طريقًا تَعامدياً نحو فرع النيل حيث المكان الذي يقصده ، يَصفح الهواءُ وجهه بقوة ، يصلُ لناصية شارع تقاطعي كبير متخطّيًا مجلس المدينة ومبنى الإطفاء متفحصاً بعينيه الأبنية العتيقة ذات الأسقف المرتفعة بأبواب شُرفاها الطويلة ، يتخطَى الطريق نحو إشارة مرور أُخرَى في تقاطع جديد ، يَنعطف يميناً عابراً الشّارع جهة حديقة الطفل في مواجهته ، يدفع ثمن تذكرة الحديقة ، يختارُ كُرسيّا قريباً من الألعاب حتى يكونَ ابنه على مقربة منه بينما يلعب ، يتأمّلُ أطفالاً يلعبون الكرة وآخرون على " الزحليقة " وغيرهم يُهرولون وراء بعضهم البعض ، يُتابعُ باب الحديقة بِفضولٍ مُنتظراً دخول ابنِه في أيِّ لحظة ، ينتظره ، لا يدير عيناه عن الباب أو السور

الحديدي الذي يكشف طريق السيّارات خارجه ،لم يأت بعد و الوقت يَمرُّ ، ينتهي الوقت المخصص لِلرّؤية ، يوقع الورقة التي تثبت حضوره و عدم حضور طفله ، يوقعها كُلّ أسبوع ، يتذكرُ أنه يَأْتِي دائماً في الوقت المخصص لِلرّؤية ولكنه لم يُصادف مرة أن رأى ابنه ، يَحصل على أوراق قانونيّة لا تنفعه في شيء ، يُضيفُها إلى ذلك الملف الذي امتلأ بأوراق الرؤية وصور المحاضر وأحكام القضايا ، يخرج من الحديقة شارداً مُتخطيّا سيل السيّارات مُتجهًا نحو بيته ممنِّيا نفسه بأن يحدثَ اللقاءُ مع ابنه في الأسبوع القادم .

لِقَاءٌ سِرِّي

نَظر لِثوبِها الأسود الضيّق المنكفئ على عودها النّحيف .. ، يلمحها من بعيد ،تنتظره في نفس المكان كُلّ يوم في وقت العصاري، يشعر بالإثارةِ ، تَدفعه لِيُغامر بِصعودِ التّل من أجل لحظة أُنس بجوارها ، لا زال يُحدّق إليها ، يلتفت يَمينا ويسارًا ، يبحث عن أحد قد لَمحه أو لمحها ، تشير له ليصعدَ لأعلى التّل حتى يكونا معاً بعيدين عن الأنظار ، تبدو له حيناً وتَختفي حيناً ، لابُدّ أنها تَخشَى من أن يَكتشفَ أمرها أحدٌ ، يلتقط عصا من بين الصّخور ، يتساءل كيف صعدت إلى قمة التلّ ، يَتكِئُ عليها بَادئاً تَسلّق الحجارة .... أحد الصبية يُناديه:" يا مصري ماذا تريد من تَسلّق التل كُلّ يوم ؟!" يرتبك ، ينظر لأعلى يخشى أن ينفضحَ أمره ، يبتسم له بِثقة ، يُواصل طريقه إلى أعلى...يَنطلق الصبي حافي القدمين مُفحّطا بقدميه في التُّراب مُصْدرًا صوتا مُزعجًا بشفتيه كسيّارة تَنطلق في لحظة بِسرعة المائة ، شعره أشعث أغبر بلون الرِّمال .... ينغمس في بطن الصحراء ، يواصل لعب الكرة مع أصحابه ، قَبيلة ضدُّ قبيلة .

الشّمس في مُنتصف طريقِها لِلغُروب ، عندما تُوشكُ على الاختفاء وراء الجبل تَصنعُ بُقعاً أرجوانيّة حمراء ذهبيّة قبل أن تصبح القرية ليلا كمكان أصابته لعنة أفنت سكانها ، يستمر في الصعود ، يُقلّبُ بعصاه الصّخور الصغيرة متعددة الألوان ؛ حمراء وسوداء وصفراء متناثرة ، يَمسكُ إحداها بين يديه ، يُلقِي بها لأقصى ما تستطيع يده ، تسقط

على مرأى منه ، تتهاوى متدحرجة ، صخور بُركانيّة ناعمة وأخرى جرانيتيّة ورُخاميّة ؛ يعلوها بقايا عظام مُتناثرة ، آثار طلعات برية لبدو كانوا على ما يبدو يُقيمون احتفالاً على سفح التّل ، رماد أخشاب مُحترقة مُتفحّمة ... يتخيلهم فجأة أمامه ؛ يَلْتفّون حول النّار ؛ يَذبَحون الْخِراف ؛ يضعونها فوقها ، يُفرغون شِوال أرز في إناء ، يطوف الصبية بالشاي والقهوة ومرق اللّحم على الْجُلساء ، تتصاعد رائحة الشّواء ، يتسامرون ويضحكون ويدندنون بقصائد بدوية ، ويحيكون الحكايات عن أجدادهم ... لم يتبقّ إلّا العِظام ورماد الشّواء...تَتجلّى الممرات الصّخرية في التّل كلّما واصل الصعود ؛ كخطوط مُتعرجة رسمها طفل صغير على صفحات الكُرّاس، يستطيع أن يصعد التل مُغمضَ العينين ، لقد حفظ الطريق جيداً يصعد يومياً لِلقائها حيث تنتظره بنفس المكان ، لو علم أحدٌ بما يحدث لِأُقيمَ عليها الحد فوراً ...أَوْشَكَ على الوصول ، يرتقي صخرة مرتفعة مُستلقيا على بطنه ، يُعاود الوقوف ، يتفادى الصُّخور شديدة الانحدار ، يستهلكُ قرابة النّصف ساعة في الصُّعود ونصفها في الهبوط ، الشّمس تقترب من حَوَافِّ الجبال ، بعد دقائق سَيصبح معها حيث يجلسان سويّا لتأمل تلك المزرعة المتناهية في البُعد ، والتي تبدو كواحةٍ وسط الصحراء تُغطيها الْخُضرة و تنبثق منها أشجار النّخيل ، صغيرة صغيرة كعيدان جرجير ، يقسم بين نفسه أنه لا يفعل شيئاً غير الجلوس معها والتآنس بجسدها ، إنه حُبٌّ بَريء من نوع ما ، لا يُمانع أن تَحوطه أحياناً بأطرافها ، تتبادرُ لِذهنه أثناء صعوده أطياف من الذّاكرة.. كورنيش النيل ... قُرص الشمس في حجم

غير عادي في فصل الربيع ... حافته تستقرُّ على قمة شارع طُولي تعامدي على فرع النيل صاعداً إلى أعلى كهذا التّل ، عندما تكونُ الشّمس في ذلك الوضع لا أمتع عنده من الجلوس على الكرسي الأسمنتي المثبّت على ضفة النهر حيث امتداد الشارع أمامه والنيل من خلفه وشجرة الْجُهنَمِيّة بأزهارها الحمراء المتفشّية فيها من فوقه وعلى امتداد الكورنيش ، يستمرُّ جالساً على الكرسي حتى تغرق الشّمس في الجانب الآخر من البلدة حيث الشارع يبدأُ في النزول .

ــ ها هو قد وصل أخيراً لِلقمة ، يُقلّبُ عينيه ، ينظر حيث المكان الذي شهد مولد علاقتهما ، ها هي ، واقفة مكانها فوق التّل بثوبها الأسود وأغصانها الخضراء ، يتقدم نحوها مُتنفساً الصعداء ، يجلس في كنفها مُحرّكاً يده على جزعها الجاف وجذورها المخترقة صلابة الصخر ، أغصانها الصغيرة وجذعها الضئيل تبدو من أسفل كأيدٍ تشير للمارة ، من أسفل بدت له أول مرة كامرأة تشير له ليساعدها ، يستند بظهره على جذعها مستمعاً لرفيف أغصانها الجميل يُحرّك الصمت اللانهائي أعلى التّل ، يتابعُ مشهد الغروب برهبة ، يتأمّلُ مع رفيقتِه بيوت القرية من أعلى ،تبدو كَعلب كبريت والمدرسة التي يعملُ بها كماكيت كرتوني والأطفال يلعبون هنا وهناك كدودٍ يزحف والمزرعة أكثر بُعداً وصغرا ... يَشعرُ بِالرغبةِ في العودة لبلدِه وتركَ كُلّ شيء ....إحدى الصخور يتراقص بريقها على مَقْرُبةٍ منه ، يلتقطها بفتور ناظرًا إليها ، يقلّبها في كفِه ، يُحدّق فيها فجأة غير مصدق ، إنها تتوهج ببريق الذهب ، صخوراً تشبهها في نفس المكان ، يُخمّنُ أنها تحتوي على نسبة عالية من الذّهب ،

ترتفع دقات قلبه ، لقد أصبح ثريّاً ، سيجمّع أكبر قدر من تلك الصخور ، يعودُ لزوجتِه وأولادِه ، يُشاهدهم يَكْبُرون ، لن يفارقهم مرةً أخرى ، سيجلسُ معهم على ذلك الكُرْسي تحت الْجُهنّمية ، يشمّ رائحة الماء ...دخان السيّارات ، يَمُتعه ذلك ، يُشعره بِالحياةِ ، سيعودُ من الغُربةِ ،يبتسم...يَضحكُ....يَبكي .

ــ الشّمسُ من خلفه تُوشك أن تَختبئ وراء الجبال ، تأخذ معها دائماً أشعتها الذهبيّة الْمُتوهجة ، يَحِلّ محلّها ضوء فضي قاتم ، اللون الذهبي في الصخرة ينطفئ ، دائماً ما كان يعشق وقت الغروب ، يبدو الغروب له الآن ذو رائحة عَطِنة ، ترتسم ابتسامة فاترة كئيبة على شفتيه ، الأجزاء اللامعة من الصخرة تبدو كمادة زجاجيّة شفافة عكست ضوء الشمس ، يقذفها نحو الأفق ، لا يسمع دويّها ، يتهيأ للنزول قبل حلول الظّلام ، تَخرجُ الأفاعي والعقارب مُستترةً بِالظلامِ تَبحثُ عن ضحاياها ، يَصلُ لِسفحِ الجبل مع ذهاب آخر وميض ضوء ... يتخذ طريقه نحو القرية ...يتضاءل في بِحر من ظلام يَبتلعه ....يَختفِي تمامًا .

سَاعاتٌ مِن نِهارٍ

اسمُه "زكريا" .. هكذا ناداه بينما نعته هو بالغبي والجبان ولم يزل على تعارفهما أكلة توت .."أقدم يا جبان .. هيّا تعالى .. لاتَكُنْ جباناً .. لا تخفْ .. تعال يا جبان .. يا لك من جبان صغير" ..لم يدر كم مرة كرّرها بينما كان مُستلقيا على بطنِه فوق ظهر ماسورة الصّرف ، تُثقلُه أكلة التّوت ، يُفزعه أن يراه خاله وقد أصبحَ على مرمى البَصر أمامه رافعاً صنارته ، يُخيفه السقوط المتوقع في قلب المياه القذرة التي تتحرّك بفتور أسفل ماسورة الصرف الصحي المستلقي فوقها .

مُنذ قليل عندما أجابه:"اسمي زكريا" ردّاً على سُؤالِه الذي طَرحه بينما يُحاول إزالة بُقع التوت الحمراء الحبشيّة التي صبغت أجزاء مُختلفة من قميصِه بِأصابعِه كان الآخر مَشغُولاً بِتأملِ قَمم الأشجار المرتفعة التي تُظللُ رؤوسهما .. فجأة ارتفعت يده نحو السّماء وأغمض إحدى عينيه وانطلقت حَصْوَة بُرتقاليّة صغيرة مرفوعة بقوةِ نبلته الجلديّة السّوداء لأعلى تتخبطُ بين أوراق الأشجار .. لحظات قصيرة استغرقتها الحصوة في النزول قبل أن تستقرّ أمامهما .. بجوارِها كان يَرْقدُ عصفور صغير يَرْتعش في حركات آليّة غيرَ مُنتظمة ..أخرج من جيبه ورقة صغيرة ، فضّها فلمعت عن شفرة حلاقة حادة ، حرّكها حركة واحدة سريعة على رقبة العصفور ، كبَّر حين فعل ذلك ، خَمدت حركته للأبد ، دسّه في حقيبة بلاستيكيّة

سوداء كبيرة ، خَمّنَ أنها تَمتلئ بعشراتٍ من عِصافير نزعت عنها الرؤوس.

قال له مُحاولًا جذب انتباهه:" لقد رأيت بالأمس في وقت العصاري .. هل تعرف ؟ .. شجرة تَعَجُ بالعصافير الصغيرة والكبيرة .. أفسح ما بين يديه لمسافة نصف متر .. تذكر أنه لا يوجد عصافير بهذا الحجم ، كان يقصد أنها كثيرة ، انصرف عن محاولة التعبير بيديه.. عاد وأكمل .. إنها هناك .. هل تسمعني" .. أشار بيده .. " لقد كانت الشّجرة وكأنها تنبت عصافير تزقزق " .. سأله " من أين أنت ؟!" بدت لهجته ساخرة ، أجابه مُسرعاً مُتجاهلاً لهجته الساخرة أو ظنّ أنه يتوهم بأنها ساخرة " نحن نعيش بالقاهرة .. كوبري أبو العلا الحديدي .. الزمالك هل تعرفها ؟ .. ونقوم بزيارة ل ..." أراد أن يُكمل .. أن يقول له: أنه أتيَ لِزيارة الِجدة والأخوال بالقرية ليومين ، قاطعه ، لم يعطه فرصة " يا لك من غبي" .. قال له ذلك ، سمعها واضحة ، لم يَرد عليه ، كان بإمكانه أن يقولَ له:" أنت الذي يمكن أن نطلق عليه الريفي الغبي" .. ابتسم بدلا من ذلك ، سمعه يكمل:" إذا كانت موجودة على الشجرة أمس في العصاري فإنها لابُد وقد طارت الآن في الظهيرة" ..أضاف مُتحدثاً إليه:"سأذهب لأصطاد بالجانب الآخر .. هل ستأتي معي ؟" .. تردد قبل أن يُجيبه ، سيغضب خاله ، قد يُعنّفه بِشدة إذا ابتعد ، حين شبّ بقدميه ناظراً حيث الموضع الجالس فيه خاله يُصطاد السّمك من صبيحة اليوم لم يستطع أن يلمحَ إلّا طرف صنارته ،شجّعه ذلك على أن يذهبَ معه .

لم يكن هُناك كوبري خشبي من جذوع الشّجر كما تخيّل عندما قرر الذهاب ، فقط ماسورة صرف صحي تَصل بين جانبين ، التفاتة سريعة بَدرت منه ، أرادَ أن يتأكّد بها أن أحداً لا يراه ، نظر لِلماسورة العملاقة ، تفحصها بُرهة ، تساءل بين نفسه عن كيفية عبور هذا الشيء ، أكوام من قمامة كُوِّنت هضبة صغيرة من القاذورات المتراكمة الفوّاحة بروائح نتنة لِمحها أسفل الماسورة ، وأسراب من ذباب أفزعها قدوم عابرين صارت تعف في المجال الذي توجد فيه رأسهما .. في منتصف ماسورة الصرف عندما كان يخطو بخُطوات وئيدة ـ مُتجنباً القِيام بِحركات مُباغتة ، شارعاً ذراعيه كجناحين ، ومُتمايلاً فوقها يَميناً ويساراً ـ عَبَرَتْ نظراته التّرعة لِلجانب الآخر حيث يقف زكريا الذي عبرها جرياً على الأقدام ، وقتها فكّر أنه قد أصبحَ مرئياً لِخالِه ، حَانَتْ منه التفاتة جهة اليسار ، لمحه واضحاً مُتربعاً تحت الأغصان رافعاً صنارته لأعلى كما تركه ، غير مختبىء أو مختفٍ مع انحناء ضفة الترعة ولكن بوضوح على مرمى البصر أمامه ..فقط نظرة واحدة منه جهة اليمين فيراه في مُنتصف ماسورة الصرف ، ارتبك .. اختلّ توازنه .. انكفأ على ظهر الماسورة .. عندما كان مُتخذاً هذا الوضع المأساوي فوق الماسورة كان زكريا يناديه من الجانب الآخر حيث يقف وسط أعواد البُوص الخضراء النّابتة على حافة الترعة،لم يَكن يُناديه باسمه ، نعته بِالجبان ، كرّرها كثيرًا." أقدم يا جبان .. هيّا تعال .. لا تكن جبانا .. لا تخف .. تعالْ يا جبان .. يا لك من جبان صغير" ..و بينما هو شارد في المياه الوسخة المتحرّكة في وائدة أسفل ماسورة الصرف كانت الساعة في

يده تُشيرُ لِلثانية والنصف ظُهراً ،ليس هُناك اختلاف كبير عن بداية يومه ، الجو سيء بِالمقارنةِ مع التوقيت الرّبيعي .. في السّاعات الأولى من الصباح نهار حار ساكن كئيب مُعبق بذرات ترابيّة عالقة في الأنف طوال الوقت تدفعه لِرغبه مُلحة في العطش ، انعدام هوائي ورطوبة ممزوجة بعَرق .. في التّاسعة صباحاً و لثلاثِ ساعات من الوقت كان يَجلسُ مُواجهاً لخالِه مستنداً على جَذْع شجرة، مائلاً بزاوية حادة على حافة الترعة.. ينظر إليه – خاله – يُحدّثه: "الصيد بالصنارة هل أنت معي؟" .. الصيدُ بِالصّنارة حرفة ومهارة وتَمرس ، وكما قلت لك: ليس كُلُّ شخص يمتلك صنارة يصبح صياداً" .. قال ذلك دون أن يلتفت إليه ، عيناه مُركزتان على الكُرة الصغيرة في حجم البلية المتأرجحة بحركات بطيئة جهة اليسار مع تيار الماء في زحفِها المستمر أسفل الصَّفْصافة الْمُنكفئةِ على سطحِه ، حتى إذا وَصَلَتْ أسفلها ولامستْ الصّفْصافة الْمُبتلة جَذبَها بشدةٍ أمامه لِتُعاودَ تأرجحها في طابعٍ جَنائزي هادئ ومُثير لِلملل باتجاه الصّفْصافة مرة أخرى..في خلال ذلك وبينما تدفعه رغبة مُلحة في التّحدث إليه كُلُّ قليل .. لم يَجدْ هو شيئاً مثيراً يَنظر إليه غير بوصةِ الصّيد السّوداء التي يُمدها أمامه بِطولها الذي يتعدَى الستة أمتار، وحلقاتها المثبتة بها يمرُّ من خلالها ذلك الخيط البلاستيكي الشّفاف الرفيع مُتصلا بتلك الماكينة التي تَصدرُ ذلك الأزيز في يده كُلّ قليلٍ دون جدوَى مُحدثة نفس الصوت الرتيب .. في البداية يكون هُناك غمز ورعش مُبهم يُشكّل محيط الكرة ، يبدو السّمك خلالها كأنه يُبلّغ رسالة من نوع ما أو يستمتعُ بِرسمِ لوحات فنية على سطح الماء ، تزدادُ الاهتزازات

وضوحاً بعد ذلك ، تَنغَمِسُ الكُرة وتَرتفعُ مرات ومرات ، لِدّقائق تَفعلُ ذلك ، يَجلسُ صامتاً على شطِ التّرعة مُتحِينا اللحظة المناسبة لالتقاطها ، فجأة يَجذبُها بقوةٍ وينطلق الأزيز بين يديه ، وكَكُلِّ مرة تتدلى أمام عينيه ثلاث صنّارات معدنيّة كبيرة خاوية من طُعمها ، بينما صوته يتخللُ ذلك مُدلّياً بنصائحِه له ، قال له:"الصبر .. إن هذا ما يُميّز حرفة الصيد بالصنّارة أنها تعلمُ الصّبر، وكما يقولون طول البال ينيلُ المراد ، لا تتوقعُ أن يتقافزَ السّمك لصنارتِك لِمُجردِ أنك ستُطعمه ، إنه يُفضل البقاء جائعاً على أن يتحوّلَ لوليمة لذيذة تُوضع مع الأرز والسّلطات على الغداء في شمِّ النّسيم" ردَّ عليه ممازحاً كنوع من الذوق أو اكتساب الرضا ، قال له: "وربما أن السّمك يعلم أن اليوم هو عيد شم النسيم فقرّر أن اليوم صيام .. عندما قال ذلك كان يريدُ أن يبدو تعليقه كفُكاهةٍ ، ولكن لسببٍ من الفتور والملل الذي يَشعر به خرج كحقيقةٍ علميّة يذكرها ، اندفع خاله في الكلام فور سماع التعليق ، قال:"لا لا إنّ السّمك لا يصوم من أين أتيت بهذا ؟" .. لم يَحتّجْ أن يَردَّ على سُؤالِه ، لم يَجد عنده إجابة ، انشغل عنه خاله بتعبئة الصنّارات الخاوية بقطعٍ من الخبز الطري وطحالب الصخور ودود الأرض المقزز ذو اللون الوردي الذي يُعطي إحساس لمن يره أنه أمعاء طائر مهروسة ، منذ ساعتين مَضيا يفعل ذلك ، يتركها تتهاوى في الماء على بعد أمتارٍ ، قبل أن يقذفَها يُربّتُ بأطرافِ أصابعه على الدودة المعلّقة في الصنّارة أمامه ..يُحدثها:"والآن أيّتها الدُّودة القذرة الصغيرة فلتذهبي وتأتي لي بسمكة كبيرة"، يطوّح الصنّارة في الماء ..يسمعُ بعدها ذلك الطشيش

الناشئ عن ارتطام الكرة البلاستيكيّة بالماء ، تَنغمسُ وتَطفو وتنغمسُ وتطفو ، غير أنه في نهاية الأمر يَجدُ نفسه مُحملِقاً في تلك الصنّارات الثّلاث المتأرجحة خاوية أمامه كَمشانقٍ لم يُعلّق بها أحد بعد.

ـــ في الثانية عشرة ظهراً كان لازال مستنداً على جَذعِ الشّجرة العملاقة ينظر إليه بينما خاله مشغول بتثبيت الطعم كُل قليل .. الجو يزدادُ سخونةٍ مع دخول وقت الظهيرة ، البُقع الصّفراء التي تَسلّلَتْ من بين أوراق الشّجر ورسَمت أشكالاً دائريّة مُتعرجة فوق ملابسه أصبحت كرات مَعدنيّة مُلْتهبة ، القريةُ بَدَتْ وكأنّها شاغرة من ساكنيها ، الشّخص الأخير الذي عبَر بجوارِهما كان مُنذ ساعةٍ ونصف مضت ، رائحة كريهة هبّت مع لفحات الهواء الساخن ، عندما نظر نحو التّرعة بَحثاً عن مصدر الرائحة تبيّن أنها من ذلك العَجل المنتفخ المتحرّك نائماً فوق الماء ، لم ينتبه لموضعِ قدمِه ، انزلق جسده لأسفل من أعلى الضفة المائلة بشدةٍ في اتجاه التّرعة ،ولأنه كان مستنداً على جذع الشجرة ، لم يجدَ شيئاً يَتشبثُ به غير غُصنٍ قريب منه أعاده لِمكانه .. فُرْصة لا تتكرر وجدها خاله لإعطائه بضعة نصائح عن خطورَة الصيد بالصنّارة .. قال:" أهم شيء هو اختيار المكان المناسب ، يلزم الصيّاد الماهر أن ينتقي المكان بِكلِّ دقة ، أتفهم ما أقوله ؟ انظر إنني أبعد عن حافة الترعة نصف متر .. لا أجلس على الحافة .. سأخبرك .. هل تعرف السبب ؟ .. قد يلتقط الطعم سمكة ضخمة كبيرة تَجذب الصيّاد معها لِلقاعِ .. كما أن السّمك لا يَجبُ أن يراك وإلّا هرب ، وبالطبع لو جلست على الحافة سينعكس ظلك في الماء ، أتعرف ما سيحدث حينئذ ؟ هل تعرف ؟؟

سيعلم السّمك أن هناك شخصاً ما .. انظر .. هل ترى ؟.. لا يوجد ظل لي.. هل ترى الشمس .. إنها فوق رأسنا .. قليل وتجدها وراءنا .. لو أنني أجلس على الحافة الآن لكان ظِلي مرتسماً على سطح الماء هل فهمت ذلك ؟ .. هل فهمت ؟ .. سأعيد ما قلته بطريقة أخرى ، إن .. أقسم إنه قرموط ضخم هل رأيت ذلك ؟"..

قبل ذلك بقليل عندما كان يتحدث إليه كان يلتفت برأسه مع كُلّ جُملة يقولها ثم ينظر للقرية للحظة ويعود وينظر إليه حيث يجلس مستنداً على الجذع كما كان من أوَّل يومه مُشبكا ذراعيه أمام صدره ثانيًا ركبتيه أمامه هازّاً رأسه مع كُلّ كلمةٍ يُدْلِي بها خاله علامة الفهم والموافقة ، لا يستطيعُ أن يفعلَ غير ذلك ، تمنى لو ظل في الدّار ولم يَخرج معه ، كان سيجدُ شيئاً يُسلّيه أفضل من ذلك الانتظار الممل لصعود السّمك في صنّارة خاله ، حيث أن صنارتِه لا تَصطادُ شيئاً ، غير أنه عندما صرخ قائلا:" أقسم أنه قرموط ضخم" أصابه الفضول ، اعتدل بظهره ، ارتكز على ساقيه ، نظر جهة الكرة البيضاءالمهتزة بعنف وغابة الصيد الطويلة المنحنية لأسفل .. ثم خاله الذي شرع في إدارة الماكينة بصعوبة ..بعدها بدقائق كان قد انصرف تاركاً خاله بمفرده قانعاً داخل نفسه بأن الصيدَ بالصنّارة ليس هواية شيّقة كما أخبره في الصباح محاولاً إقناعه أن يأتِ معه ، على أنه حتى لو تمكن ذلك القرموط من التقاط الطُعم جيداً ولم يَفْلت من الصنّارة مُختفياً في الماء كما حدث كان سينصرفُ تاركاً إيّاه ، فكّر بهذا عندما كان يَفكُ الصنّارات المتشابكة في مُؤخرة رأس خالِه وقميصِه الذي تَمزّق جُزءٌ منه من أثر اشتباك الصنّارة في نسيجِه ، عندما كان يفعل

ذلك كان يُفكّرُ في الانصراف ، بينما خاله مستمرًا في التّحدث:" هذا خطأ يجب أن تتجنبه .. يجب أن تتعلم ذلك ولكني لا أقول لك أنني لست مخطئاً .. لقد نطرت الصنارة بقوة إلى الخلف ، ما كان يجب أن أنطر الصنارة إلى الخلف .. عليك أن تتعلم مني " .. قاطعه .. قال له:" لقد غيرت رأيي .. لا أريد أن أتعلّم صيد السمك " .. واصل كلامه بلا توقفٍ ، أحنى رأسه لِيسمح له بالتقاط تلك الصنّارة المغروسة بأرضيّة شعره ..قال له:" الصبر .. إن أهم شيء تتعلمه من صيد الأسماك هو الصبر".

ـــ الساعة الواحدة ظُهرًا .. ساعة من ساعاتِ الملل في القرية .. الحرُّ اشتدَّ ضراوة ، الأشياء التي يتلمّسها من حوله أصبحت كُلّها مُلتهبة ، والسُّخونة امتدّت من التّراب الذي يَمشِي عليه لداخلِ حذائه ، نبرات صوته القادمة عن بعد وصلته فاترة غير واضحة رغم الهدوء المخيّم على بيوت وحواري القرية التي يلمحُ بدايتِها، لا شيء يسمعه غير الصمت الكئيب حتى زقزقة العصافير وترجيع الحمام وأصوات الطيور الأخرى التي كان يسمعها في الصباح قد توقفت تماماً عن الصدور كأنها قد ذهبت جميعا للنوم .. كان خاله يصرخ بأعلى صوته: " لا تذهب بعيداً في هذا الحر وإلّا أصابتك ضربة شمس" .. عندما نظر جهة الصوت القادم من مكان وسط الأشجار لم يستطع أن يرى إلّا الطرف الأسود لِلبُوصة ، رفع صوته عاليًا ليتأكّدَ أنه سيصل إليه:" لا تخف سألعب بالقرب من هنا"

على حافة المياة المجاورة لمكان وقوفه على الطريق التُرابي للقرية كان هناك رجل عجوز يَجلسُ .. عند اقترابه منه انتبه مُندهشًا لتلك السّلة الممتلئة بالأسماك والتي تَشبه المستخدمة في رياضة كرة السلة

غير أنها كانت مسدودة من أسفلها ، يترلها فارغة في الماء ثم يرفعها وقد امتلأت بالأسماك كأنها طعام انتهى من طبخِه يغرفه في الإناء .. وقتها تذكَّر خاله الجالس على بُعد خُطواتٍ من هُنا فضحك بشدةٍ .. في البُعد بين الأشجار كان طرف صنّارة خاله لازال ظاهرًا .

ـــ في الثانية ظهرًا كان ضوء الشمس الأصفر يرسل خيوطاً إشعاعيّة من بين ورقات شجرة التوت الباسطة أصابعها فوق هامته ، نظرة عرضية صَدرت منه لأعلى ، أغرته حبات التوت البيضاء ، انتصب على أصابع قدميه ، قفز في محاولة للوصول لأقرب غصن ، لم يصل ، كررّها مرات ومرات ، تساقطت قطرات العَرق غزيرة على جسده ، امتزجت بالتّراب الذي أثاره بِقدميه مع قفزاتِه اللحوحة ، اكتسبت ملابسه لوناً طينيّاً كلونِ التّراب النّاعم أسفل حذائِه ، خَمَّنَ أن وجهه لابُدَّ يُشبه ، مسح بِكلتا يديه على خده ، أسفل منه كانت حبات من التوت المتناثرة من وقتٍ سابق قد دهستها الأقدام .. بينما كان لازال واقفاً أسفل شجرة التوت انبعث من خلفه صوتاً يُحدثه: " توجد شجرة توت منخفضة بجوارك " .. التفت لمصدر الصوت ، لم يكن غير فتى ريفي يُماثله في السِّن ، بدا من أوِّل وهلةٍ بِمظهرٍ قذر ، الثياب الرّثة والشّعر المهوش وقدماه الحافيتان وحقيبة بلاستيكيّة سوداء في يده وشيء جلدي لم يعرف ما هو ، نظر في الاتجاه الذي أشار إليه ، وقعت عينه على شجرة توت عملاقة مائلة وممتلئة على بعد مترين منه ، ابتهج وجهه ، صارت حبات التوت في متناول يده ، لم تكن بيضاء بل حبشيّة حمراء .

لم يزل ينعته بالجبان من الجانب الآخر بينما هو مستلقيا على ظهر ماسورة الصرف يضمها لصدره ، ينظر تارة نحو زكريا وتارة أخرى نحو المياة الوسخة التي تزحفُ بِبُطء أسفله المحملة برحيقِ القمامة المجاورة وثالثة ينظر نحو حاله .. يتساءل:" هل رآه .. هل رآه" .. أحسَّ بسخونة المعدن الراقد فوقه والروائح الكريهة تُطَوّقه وحرارة الشمس تلسع مؤخرة رأسه ، رأى أن من الأفضل التراجع ، أن يعود من حيث أتى ، لا يجازفُ برؤيةِ خاله له في أيِّ لحظة – قال بصوت عالٍ:" لقد غيّرتُ رأيي سأرجعُ"– قال ذلك وعدّل وضعه.فوق الماسورة ، بدأ في الزحف عائداً مرة أخرى .. بلَغه صوت زكريا ساخراً من الجهة الأخرى وقد بدأ يفقد وضوحه .. سمعه رغم ذلك " يا لك من غبي جبان .. يا لك من غبي جبان"

– في الثالثة والنصف عندما عاد و بدأ يرتقي سلم الدار ذات الأرضيّة الترابيّة الداخلي الصاعد فوق السطح ، كان يأملُ أن يَتحرّكَ الهواء قليلاً مع انكسار تعامدية الشمس ، أراد أن يرفع تلك الطائرة الورقيّة الصغيرة في السّماء غير أنها كانت ترتفع لمسافة المترين ترفعها نسمة ضالة ثم تتهاوى عند قدميه على الأرضيّة الأسمنتيةّ الساخنة لِلسطح بلا حراك .

– على حافة السطح الأسمنتي الذي لا تُحدّه أسوار استطاع أن يكشف بيوت القرية المنخفضة وبعض أزقتها وحواريها ومحلات البقالين ذات الدلف الخشبيّة العتيقة .. من الجانب الآخر لِلسطح انكشف مجرى الترعة التي يجلس على حافتها خاله ، لمحه في البعد ،

لازال رافعاً صنارته كما تركه ، نادى عليه بأعلى صوته ، رآه يلتفت جهة البيت .. سأله بنفس نبرته العالية محوطا فمه بكفيه" ألم تنته بعد؟".. بدا واضحاً أنه لم يسمعه ، اكتفى بالضحك ، لوّح بيده أربعاً ، عاد لما كان يفعله .. عندما حاول أن يبحث عن ماسورة الصرف التي ترك عندها زكريا منذ ساعة مضت لم تستبن له ، حجبها عنه بيت ذو ثلاثة طوابق .

- بعد قليل كان خاله قادمًا إلى الدار من شرق القرية ، لم تكن حقيبته خاوية كما توقع ، كانت منتفخة قليلا ، بالأمس كان أبوه يفكر في شراء أربع كيلوات من سمك البلطي المفلطح وسمك المكرونة ، عارضه خاله ، أقسم له أن الترعة قد ازدحمت بالأسماك حتى لم يعد هناك شبر يتنفس السمك من خلاله ، كان ماداً ساقيه على الأرض أمامه جالساً على الكنبة البلدي ، قال له بثقة زائدة:"إذا كانت الصنّارة موجودة والسمك كثير فما المطلوب ؟" ..وردّ عليه أبوه ضاحكاً:"أحدٌ يصطاده" .

- حين كان وقت الغذاء لم يكن على الطبليّة الخشبيّة المستديرة سوى ثلاث سمكات متوسطة الحجم تنتصفُ طبقا كبيراً وكثير من أطباق السّلطات والأرز ، تفحّص طبق السّمك مُندهشاً بين نفسه ، تساءل عن بقية السّمك الذي كان يَملأ الحقيبة ، توقف عن التساؤل والنظر لطبق السمك الشحيح على ضجيج البط الشّرشيري المتوحش السارح بآخر الدار عند الفُرن البلدي ، عندما نظر إليه كانت أمامه عشرات من الأسماك الصغيرة بحجم إصبع اليد تفرش الأرضيّة الترابيّة ، أدرك وقتها أن غذائه اليوم أرز بالشّعرية وسلطات وقطعة صغيرة من سمكة مُتوسطة الحجم قضى خاله النّهار بأكمله في صيدها

-في الخامسة والنصف عصرًا سمع طرقات غير منتظمة على بوابة الدار ذات المطرقة المتخذة شكل قبضة اليد ــ "ولد يدعى زكريا يسأل عن أحمد ــ" .. قالت ذلك الخالة .. أعين الجالسين على الحصيرة حول صينيّة الشاي الغامق بلونِ الحبر الأسود اتّجهت نحوه ، رُبَّما لِمنظر الفتى الذي يَطلبه حيث الفانلة المتسخة والسروال القصير المترهل على فخذيه والشّعر الأشعث الذي لم يَطله المشط منذ زمن .. تذكّر أنه كان يرتدِي بنطالاً اليوم ، حاول تخمين كيفية معرفته لدارِه .. أتاه صوت جدته من خلفه:"تسأله عن حاله" بدا أنها تعرفه أجابها زكريا مبتسمًا:"بخير يا حاجة " وسألته مرة أخرى:" هل لا زلت تتشاقى كعادتك ؟" .. حين قالت ذلك حرّك رأسه يمينا ويسارا وطوّح يده بطريقة خجلة من ذلك الجمع الناظر نحوه يتفحصه ، بدا له بمظهر يتناقض مع الصورة التي رآه عليها في الظهيرة ، .. قال:"لقد تركت الشّقاوة يا حاجة" ابتسمت طالبة منه إيصال السلام لأمه .

– في المكان الذي كان يجلس فيه مع خاله هبّت نسمات هوائيّة متزايدة مع اتخاذ الشّمس طريق الغروب والطائرة الورقيّة التي أحضرها معه بدأت ترتفع وتعبر الترعة نحو الجانب الآخر .. قال له زكريا – بينما يجلس على حافة الترعة في نفس الموضع الذي كان يجلس فيه خاله صباحا شارعا صنارته " انظر ماذا أحضرت معي " .. نظر للقرطاس الورقي الكبير الذي يحمله في يده .. مدَّ يده بداخله فخرج شيئاً بُنياً مَحروقاً يشبه فراخاً مشوية صغيرة جداً ، يده الأخرى لازالت تَمسك بالطائرة ، تبيّن أنها العصافير التي اصطادها في الصباح بنبلتِه والتي كان يحملها في حقيبته البلاستيكيّة السوداء ،

عندما تذوقها وجدها جيدة .. فقط في تلك اللحظات مع هواء العصاري الجميل والشمس الحانية المنكفئة على ظهر القرية واللون الأحمر المبدع الذي تلوّنت به السماء في الأفق والطائرة الورقيّة وأكلة عصافير عجيبة وفتى يُدعى زكريا شَعر بالنَّشوى والفرح وانزاح ذلك الملل الجاثم على صدره من أوَّل اليوم وتملكته رغبة شديدة في الضحك .

(وَمَضَاتٌ)

طَائِرةٌ وَرَقِيّة

زيارةٌ واحدةٌ في الأسبوعِ هو المتبع ، ولكنه كان يراه كُل يوم ــ أباه ــ لم تُحجبه أسوار السّجن عنه ، ارتفاعُها غير كبير ، الأسوار مُنخفضة على الطريق المطلّ على الجزء الخلفي من مبنى السجن ، غير أنها ذات أرضيّة عميقة من الداخل حيث مَزرعة السّجن ؛ بعدها البناء ذو الطوابقِ الأربعة يَمتلئ بِالنّوافذِ الحديديّة ، يستطيعُ أن يَميّزَ شباك أبيه ، ربط أبوه عليه قطعة من القُماش الزرقاء ، يَمرُّ كُلّ يوم في موعدٍ تَمَّ الاتفاقُ عليه ، يصرخُ بأعلى صوتِه ، يبلّغه أخبارهم ، يُطمئنه على حالِهم ، في البداية لم يكن هُناك غيره ، بعدها زيّنت عشرات الشبابيك بقطعٍ من القماش الملونة الصفراء والحمراء والخضراء ، كُلُّ من له قريب جاء لزيارته ، تداخلت الأصوات ، يسأله أباه شيئاً ويردُّ شخص آخر ، ويسأل الشّخص الآخر شيئًا ويُجيبه هو ، يُدرك بعد فترة من الحديث أن تلك الأسماء والأخبار التي يسأله عنه لا تربطه بها صلة،يعاود المحاولة مرة أخرى .

أصبح لا يُميّز شباك أبيه ، كان هناك عشرات من الشّبابيك التي تحملُ قِطعاً من القُماش زرقاء ، حتى كان ذلك الوقت الذي لم يستطعْ فيه أن يرى القِطع الزّرقاء ، كان السور كما هو عندما بدأ يرتفع قليلاً قليلاً .. قالبٌ فوق قالبٍ .. وقتها وقف الجميعُ في حالة وجومٍ، ارتفعت الأيدي بِالحجارةِ تَرجم البَناؤون ، ظل السّور يرتفعُ رغمًا

عنهم حتى حَجب الحجارة ، أصابتْ النّاسُ خيبة أمل كبيرة ، حينئذ صنع الولد طائرة ورقيّة زرقاء ، ارتفعت من فوق الأسوار ، عَبرت فوق المزرعة ، وصلت حتى البِناء الشاهق ، عانقت القضبان ، وقتها صَفّق الناس وهللوا للصبي وحملوه فوق الأعناق ، بعدها كانت هناك طائرات ورقيّة بعشرات الألوان تُحلّق في أجواء •

أَزْمةٌ مُروريّة

مَشْهد أوَّل

المكانُ شارع خالد بن الوليد ، المنظر العام رؤية جانبيّة من بالكون في شارع جانبي يكشف نقطة تقاطعيّة بين الأبراج المرتفعة في خالد بن الوليد في الإسكندرية ، عربات البائعين كأواشيط نِرد مُتراصة على طاولةٍ في قَهوةٍ ، تَتحرّكُ بِمُفردِها دون أن يُحرّكها اللاعبون تَتزاحمُ لبيعِ ملابس وحقائب جلديّة ولعب الأطفال وإكسسوارات نسائيّة ، تزاحمٌ شديد ، النّاس تتدافع في الشراء ، وفود المصطافين الذين يأتون إلى الإسكندرية لا يفوقهم المرور بهذا الشارع وشراء التذكارات وشرب الخرّوب والدوم من عند الأسواني وشراء البسبوسة من أحمد حسنين ، والاستمتاع بنسمات الهواء التي تُهِلُّ من مقدمةِ الشّارع التّعامدي على البحر حيثُ تَقبعُ على ناصيتِه كافتيريا أبو هاشم ، المصطافون مستمتعون بالتّجول في الشّارع بين البَضائعِ لفحات الهواء تحرّك شعور الفتيات الجميلات بقوة .

مَشْهَد ثانِي

صوتُ صفارة تحذيريّة كَسيّم بين البائعين تحول اللوحة الفنية الجميلة الممثلة في تلاحم البائعين والناس مع السيّارات بطريقةٍ مُنظمة إلى فوضى عارمة ، شارع خالد بن الوليد المعروف بازدحامه بدا كشارع مَهْجور مرة واحدة بينما سيّارة شرطة الإشغالات تَمرُّ في زَهْو بين أنقاض بضاعة مُلقاة وقَمامات مُتناثرة وطاولات فارغة ، الشّارع يبدو كئيباً مُختلفاً تَماماً عمّا عهده النّاس •

مَشْهد ثالِث

الرؤيةُ لازالت من أعلى ، عربات البَضائع تَخرج من الأزقةِ المتشعبة من شوارعٍ جَانبيّة مُتفرعة من خالد بن الوليد ، تبدو كشرايين تَمدُّ الجسد الرئيسيّ بالدّم الذي يَحتاجه ، المرور منتظم رغم الازدحام الذي بدأ يصبُّ من روافد الشّارع المختلفة ، اللوحة تتشكّل من جديد ، تبدو كقطعٍ بازلت تتركبُ مع بعضها بعضاً .

مَشْهدُ رَابع

تَنطلِقُ الصفارة التّحذيريّة مرة أخرى ، ترتبك حركة المرور توقفُ تماماً ، تَظهر سيّارة الإشغالات عن بُعد تقترب لِتلمْلِمَ ما تستطيعُ أن تلملمَه من فواكه وكراسي وملابس ، أحدُ العَساكر فوق سيّارة التّعديات العملاقة يَجلسُ متربعاً في مؤخرة السيّارة وسط الأشلاء المتراكمة يضعُ عددًا من أقفاص الفاكهة بِجانبه ، يبدو عليه الانشغال في تذوق الفاكهة التي تَمَّ الاستيلاء عليها ، تَمرُّ وسط شارع خالد وسط نظرات اِستياء من النّاس .

المشهدُ الأخير

الصورةُ تتكرّر مرات ومرات والعربات تتفرقُ وتتجمّع عشرات المرات خلال يوم واحد والمرور يرتبك ويرتبك بسبب سيارة التعديات ، والمصطافون الذين قِدموا لزيارةِ الشّارع المزدحم يَشعرون بالغضبِ ، يَتساءلون بينهم عن سبب وجودهم في هذا الشّارع وسائقي الأتوبيسات المارة من خالد يلعنون سيّارة التّعديات وعساكر التّعديات يواصلون أكلَ الفَاكهةِ دُون تَوقفٍ .

فقد السيّطرة

"المنظر العام"

الجو صحوٌ جميل ، السّماء صافية ، بعض السّحب تتشكّل في السماء ، ساحة الكون تبدو كمطلع مسرحيّة لم تُؤلّفْ بعد أو كقطع مكعبات يتمُّ تركيبها قطعة قطعة .

"الوقتُ"

يوم من أيّام السنة في مطلع شهر ميلادي تَمَّ الاتفاق عليه بين مجموعة من قائدي سيّارات الأجرة لإحداث إضراب نوعي بسبب قانون مرور جديد .

"نصوص الإضراب"

"لا سجن لمخالفة مروريّة" "لا غرامات بالآلاف لبلد لا تزال تتعامل بالشّلنات" " لا مخالفة مروريّة للفقراء يستثنى منها الأثرياء" .

" متابعة الإضراب"

بداية اليوم .. كُلُّ شيء لازال كما هو ، السيّارات تَسيرُ كما كانت ، لا تَظاهرات ..لا هُتاف كما كان متوقعاً ، غير معروفٍ بعد كيف سيبدأ الإضراب ؟!

"الوضع الأمني"

الشوارع والميادين تَعجُ بِالضباط والعساكر المدججين بالدروع والسلاح والعصي مُرتدين الخوذات •• سيّارات الأمن المركزي تنتظر كما اعتادت مُمتلئة بالقوات •

"الأوامر"

الضربُ دون رحمة عند أوّل بادرة لِلتّظاهر •

"تقرير يوم الإضراب"

ليس هناك مظاهرات ولكن سائقي السيّارات يسيرون كأن عساكر المرور غير مرئيين، بلاغاتٌ كثيرة عن سيّارات مُخالفة ، السيّارات لا تتجاوب مع شرطة المرور ، لا أحد يتوقف ، لا أحدٌ يَستجيب ، شرطة المرور كأنّها هواء ، الوضع يتفشى كعدوى من شارع إلى آخر ، المخالفات بِالْجُملة والفائدة غير مُجدية ، تقرير عن استخدام القوة ضد عددٍ من السيّارات لإيقافها •

"اليوم الثالث بعد الإضراب"

حالة من الفوضى تسود ، قائمة المخالفات تتزايد وتختلف ، ورق يكتب وغرامات وتحذيرات ولا أحد يُبدي اِهتماماً •

" اليوم العاشر بعد الإضراب"

كان من المفروض أن يكون الإضراب ليومٍ واحد ولكنه امتدَّ لسببٍ غير معلوم ٠٠ الوضع فوضوي ، الشّوارع والميادين لم يَعد يَحكمُها شيء ، حواجز الشّرطة في أماكنٍ كثيرة ، الصورةُ العامة فقْد للسيّطرة ، شعاراتُ الإضراب تَنسابُ على لوحات قماشيّة تُغرق الشّوارع شيئاً فشيئاً ، على إحدى اللوحات كُتِبَ" الآن يبدأُ الإضراب " تَجمعاتٌ في كُلِّ مكان ، اشتباكات بالأيدي بين قوات شرطة ومواطنين ، أحد عساكر الأمن المركزي يرفع العصا ، يهوي بها على أحد المواطنين ، تصدّها يده ، يسأله باستغرابٍ لماذا تضربنا بالعصا ، يدفع عصاه بقوة نحوه ، الاشتباكات تتفكّك في جهة ثم تعودُ وتتشكّل في جهةٍ أخرى ، تبدو هذه البُؤر من أعلى كأنها تتكّون وفق كيفية مَحسوبة بِالوقتِ والمكان ، شيءٌ كبير يتشكّلُ في الأفق ، ارتباك سائد وفقْد لِلسيّطرة ٠

"المشهد الأخير"

في مكانٍ آخر من البَلْدة ، كانت مظاهرة ضد رفع سعر البنزين ، صادفت أخرى ضد غلاء الأسعار وثالثة في شارع آخر، وفي الوقت نفسه في شارع هادئ جانبي متفرع من شارع حيوي انتظم المتواجدون في الشّارع في لحظة واحدة في مظاهرة عملاقة خرجت إلى الميدان العام ، كانت تحمل شعارات مناهضة لإساءة ضباط الشرطة للمواطنين وأخرى وأخرى وأخرى ، بُؤر تتشكّل من لا شيء في كُلِّ

مكان كسحب غائمة تزدادُ كثافة تُغطي أنحاء البلاد تُوشك أن تُمطر بشدةٍ .

"المشهدُ بعد الأخير"

اشتباكاتٌ .. اشتباكاتٌ .. اشتباكاتٌ .. كُلُّ شيء مُتوقف.. سقوط .. سقوط .. سقوط .. فقد سيّطرة كامل.. إغلاقات في كُلّ مكان .. شلل تام ..انقطاع البث التليفزيوني...

فُقَّاعةٌ واحدةٌ كبيرة

أحضر صابونًا سائلاً ... مزجه بالماء بمقادير معينة وفق وصفة سحريّة قِيلت له أحضر منفاخا بلاستيكيّا طويلاً وغمزه فيه ، صعد إلى السطح ليكون قريباً من النّجوم ، قال له ذلك الشّيْخ في المنام: "حمّلها كما تشاء بأحلامك – الفُقّاعة – وارفعها في الهواء وانتظر حتى تتخذ مكانها بين النجوم" تأمّل السّماء بَحثاً عن مكان يُعجبه يضع فيه مركبة أحلامه ، ارتاح جهة الشمال حيث يَقطن الدُّب القطبي بوبره الأبيض الجميل ، يقولون هناك تتحقق الأحلام ، أطلق مراكب تجريبيّة هوائيّة صغيرة .. انفجرت في الحال ، حاول أن يُركّز ، تذكّر باقي كلام الشيخ: " فقاعة واحدة كبيرة وفرصة واحدة فريدة " أغمض عينيه.. ركّز في ضخِ الهواء بِاتّزان من المنفاخ ، ضخّ فيها كُلّ أحلامه التي لم تتحقق خلال فترة حياته السابقة ، فتح عينيه ببطء حدّق فيها من روعة منظرها ، فُقّاعة كبيرة مثل الكرة متموجة بألوان قوس قزح تتحرّك ببطء أمام وجهه ، ارتفعت مُتثاقلة من عَظم ما حمّلت به ، أصابه الذهول عندما نظر من خلال جدرانها الشّفافة وإرْتَأى كلاماً مكتوباً على صفحتها المائيّة تعرّف عليه في الحال على أنه أحلامه ، فزع عندما أحسَّ بانعدام الهواء ، انفرجت أساريره عندما هبَّت نسمة رقيقة برائحة الأحلام الورديّة من مكان ما ، بدأت الفُقّاعة في الارتفاع ، اتخذت طريق الدُّب القطبي ، عندما كان يفصله عن الفُقاعة متراً في طريق الصعود امتدت يد مُندفعة

بأقصى عزمها وقبضت عليها وفجرتها •• نظر إلى اليد غير مصدق ، عندما التفت فوجئ بزوجته ، قالت له : "ماذا تفعل فوق السطح؟! تُطلق الفقاعات !! هيّا بنا ننزل " أصابه نوع من الوجوم والإحباط، نظر إلى زوجه ، بفتور •• بدا كعودة لاستكمال حياته السالفة•• تذكّر كلام الشيخ " فقاعة واحدة كبيرة وفرصة واحدة فريدة ".

رَغبةٌ في البُكاء

كانت الحافلةُ تتحرّك ...لا يُحِسُّ بها .. لا مطبات .. لا حُفر تأرجحها يميناً ويساراً.. فقط هم يقولون أنها تتحرّك .. على مدى السّاعات السابقة لم ير من النافذة غير ظلام من داخله ظلام..ليس هناك سيارات من حولهما و لا منازل مُضيئة أو وهج لِشعلةِ نار ضالة، فقط الظلام هو ما يراه ... داخل الحافلة سكون وصمت تام، لا كلمة. لا صوت .. لا نفس ، الكُلُّ في حالة سُبات ، السائق جامد لا يتحرّك عن عجلة القيادة ، لا ترمش عيناه ، كأنه قد تحنّط على كرسيّه ، الزمن بدا كأنه توقف لا يُحركه شيء ، ساعته متوقفة منذ ساعات ، لا يعلم كم الوقت الآن ، حاول مرة أخرى تَبيّن أيُّ معلم خارج النافذة ، لا يوجد أيُّ شيء ، شعر بالرهبة والخوف ، التفت إلى الجالس بجواره ، سأله في سذاجة:"ما هذا الطريق ؟ أنا لم أر شيئا منذ ساعات" التفت إليه في فُتُور ، قال له:" نحن في منطقة لا بر لا بحر لا زمن" حينما قال له ذلك اندفع الصبي في البكاء ، حينئذ ابتسم وطمأنه قائلاً:" لا تخف أمزح معك فقط ؛ نحن في طريق يمر عبر الصحراء" ، ابتسم الصبي ، اطمأنّ ، استسلم للنوم كَكُلّ ركاب الحافلة، عندما نظر الآخر من النافذة نحو الصحراء حيث ذلك الظلام السَرّمدي و السكون الْمُخيِّم على الحافلة من حوله ، وقتها فقط تَمَلّكه نفس شعور الصبي الصغير وشعر برغبة في البكاء .

هَلْوَسَةٌ

أَطيافٌ تتفجرُ من الذّاكرة بعد أن يستنشقَ ذلك السُّم الأبيض داخل أنفه ، يرى نفسه جالساً حول تلك المائدة المستديرة داخل شقته ، يلعب القمار ، شلة الأصدقاء معه حول المائدة ، منتشين بالمخدر ، يراهنون على المال ، " فلنجعلها مثيرة" قالها أحدهم ، نِراهن على الزوجات ، أوّل مهزوم يخسر زوجته ، نعم ٠٠ نعم نوافق ، أيّام كثيرة راهنوا على ذلك ، لا يذكر منْ انهزم في تلك الليلة ، كثير من الليالي كان مهزوماً ، يفكر ، المخدر يؤثر على عقله ، لا يتذكر جيداً ، يتذكر فجأة ، انتصر في ليالي أخرى ، هل يسأل زوجته انتصر أم انهزم ، يتذكر أن أصدقاءه غير متزوجين وأنه الشخص الوحيد المتزوج بينهم ، يدخل إليها ، يقتلها يَمسك رأسه من الصداع ٠٠٠ يتجول في الصالة ، يتذكر أنه لا يمتلك مائدة مستديرة ، يبكي على زوجته ، يتذكر أنه لم يتزوج بعد ، يجرى نحو الغرفة مُترنّحاً ، الجدران تتحرك يميناً ويساراً ، يدقّق في المرأة المسجاة على الأرض ، تبدو له كأمه ، يصرخ من الرعب ، يخبط رأسه في الحائط ، يتذكر أن أمه ماتت منذ سنين ، ينظر نحو أرضية الحجرة مرة أخرى ، لا يجد أحداً غيره ٠٠٠ يتبيّن له أنه يعيش وحيداً في الشقة!

فَتاةُ الْمَطر

تجمّعت السُّحب قليلاً قليلاً ، كوَّنت كُتَلاً رماديّة ثقيلة بِمُنتصف السّماء ، تشبّع الهواء برائحة المطر ، دخل إليها من فتحات بيتهم المبني من صخور فوق تلٍ ... تنسّمته جيدًا ، أحسّت به ، عرفته ، خرجت من بيتها مُسرعة ، نظرت في السّماء ، غمر وجهها ابتسامة كبيرة انهمر لها المطر ، تعشق رؤية السّماء عندما يتدفق منها المطر ، تتبلل التلال ، تلمع الصخور ، تهبط الأرض رهبة تحت أقدام المطر ، تتفتق الرِّمال عن نباتات مجهولة خلّفتها بذور تائهة ، ترتعش فرحاً بِملمس المطر ... تكشف عن وجهها المغطى بِالطّرحة السوداء على استحياء ، تَخلع عنها عباءتها السوداء ، ينكشف جسدها عن فستانها الجميل الأحمر ، تتأكد أنّ أحداً لا يراها ، تستنشق قطرات المطر الصغيرة داخل أنفها ، تطبع قُبلة من فمها الوردِي على القطرات الكبيرة ، تتزلقُ في نعومة على ذراعيها وساقيها المكشوفين للمطر ، تبتهج السُّحب ، تنزل لها سُيولا وأغادير وجداول ماء تطوف حول التّل ، تُفْرِدُ ذراعيها لِلْجَانبين ، تلتقط بين أصابعها قطرات الماء ، تدور حول نفسها في حركات رشيقة ، يرتفع الفُستان بِفعلِ الهواء ، يعاود ويلتصق بساقيها عند ابتلاله ، ترتجف أطرافها وترتعش شفتاها نشوة .. تواصل الدوران حول نفسها تحت المطر ،

تبدو كعروس في ليلة زفافها ، يتباطأ المطر في النزول ، تتباطأ حركاتها، يقلّ شيئاً فشيئاً ، تقل حركاتها ، يتوقف تماماً فتتوقف عن الحركة ، تختفي الابتسامة عن وجهها ، يحلّ محلّها مسحة حزينة صامتة، ترتدي عباءتها السوداء ، تغطي وجهها ، تختفي داخل بيتهم الصخري .

الفهـــرس

(وَمَضَاتٌ)